المدنية والإسلام

محمد فرِيد وجدي

الكتاب: المدنية والإسلام

الكاتب: محمد فرِيد وجدي

الطبعة: ٢٠٢٣

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www. bookapa.com **E-mail:** info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

وجدي، محمد فرِيد

المدنية والإسلام / محمد فرِيد وجدي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٩٥ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٩ – ٦٠١ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ١٧٤٢٥ / ٢٠٢٢

المدنية والإسلام





فاتحة الطبعة الأولى

"الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله" ربنا لا تُزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب. ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار. ربنا إننا سمعنا مناديًا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم؛ فآمنا. ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار. ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد» وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد الذي اجتبيته من بين خلقك؛ لأن يكون مستودعًا لأسرارك، وناشرًا لتعاليمك، وواسطةً بينك وبين عبادك، يهديهم بنورك الأقدس إلى سعادتهم الدنيوية والأخروية. ربنا أسبِغْ عليه حُلل تكريمك وتشريفك وبلِّغه المقام المحمود الذي وعدته به، وألهمنا السير على هديه وهدى أصحابه، وهبنا اللهم نورًا نفهم به ما أوحيت إليه من مُحكَم كلامك وجليل خطابك، حتى نستوجب رضاك ونستحق نعمك. وأهدِ اللهم مِثل هذه الصلاة والسلام آله وأصحابه وتابعيه إلى يوم الدين إنك سميع الدعاء واسع العطاء.

أما بعد، فإنه لا يخفى على كل شرقي الآن أنَّ علاقة الشرق والغرب قد وصلت خصوصًا في الجزء الأخير من هذا القدر –إلى درجة لم يسبق لها مثيل في التاريخ – وأنَّ مصالح الطرفين قد تشابكت تبعًا لذلك تشابكًا يُوجب أن يتعارف الفريقان تعارفًا يمحو ما سبق من التناكر الذي كانت نتائجه دائمًا إضطرام نيران الشِّقاق بينهما؛ مما يدعو إلى التقاطع المُنافي

لمطالب المدنية المستقبلة. نعم، إن الإتصال بين الشرق والغرب أصبح عظيمًا، وسيأخذ في التزايد يومًا بعد؛ حتى تصير بلاد المشرق كلها عبارة عن معرض عام تُعرض فيه أنواع البضائع والصناعات، ويحضُرُه الناس من كافة المِلل واللغات. وهنا لا نُريد أن نبحث فيما إذا كان في هذا الإمتزاج الشديد مُضر لأحد الطرفين أو فيما إذا كان مفيدًا لكليهما، بل ذلك مما لا دخل فيه لكتابنا هذا. ولكنا نُريد فقط أن تقوم بعمل خاص لا مناص منه على كل حال.

ما هو ذلك العمل وما وجه كونه ضروريًا لا مناص منه؟ ذلك العمل هو إفهام الأوروبيين حقيقة الدين الإسلامي وماهيته، وإثبات أنه ضامن للإنسان نيل السعادتين، وكافل له راحة الحياتين. ووجه كونه ضروريًا لا مناص منه، فهو أن الغربيين أصبحوا بجد ونشاطهم أصحاب السلطان والنفوذ على معظم العالم الإسلامي، وما داموا جاهلين بحقيقة الإسلام ومعتقدين ما يهذي به بعض كُتابهم ضده؛ فإنهم لا يستطيعون أن يروا في ديانة محكوميهم إلا عبءً ثقيلًا على عقولهم، وحِملًا مضنيًا لمداركهم فلا يقرونهم عليه إلا احترامًا لعواطفهم فقط؛ راجين من العلوم العصرية والمعارف الطبيعية القيام بتهذيبه في المستقبل.

نقول بتمام الحرية إن الأوروبيين معذورون في تصديق التُّهم عند الإسلام والمسلمين، ولهم الحق في العمل ضدها ما داموا لا يرون أمام أعينهم من مظاهر الدين إلَّا البِدع التي أخترعها صغار العقول، وقبلها منهم العامة، وزادوا عليها أشكالًا من الأوهام والأضاليل تَنْفُر منها الطباع

البشرية وتُنافي أصول المدنية. كيف نرجو أن يفهم الأوروبيين حقيقة ديننا، وأنه الملاك الوحيد للسعادات كلها حالة كونهم لا يعرفون من دين الإسلام إلا ما يرونه أمام أعينهم كل يوم، مثل: الصياح في الطرقات خلف الطبول وتحت الرايات، ومثل: اقتراف أشد المُنكرات المُنافية للأدب والعقل في الموالد التي تُقام في كثير من نقط القطر المصري، ومثل: الاجتماع إلى حلقات كبيرة على مرأى ومسمع من أُلوف المتفرجين، والصِّياح الشديد بالذكر مع التمايل يمينًا ويسارًا إلى غير ذلك، مما لو أردنا ذكره؛ لطال بنا الكلام وخرجنا عن المقام. فهل والحالة هذه نستطيع أن نُنكر على من يُعيب ديننا أو يلصق به شائنات التهم؟ أليسوا معذورين في هذا الفهم السيء ما دام يحضر هذه المنكرات ويتفرج عليها عُقلاء هذه الأمة بدون أن يجدوا في أنفسهم ميلًا إلى رأب هذا الصدع المُتفاقم، الذي لم يقتصر على جر عوامنا إلى المنكرات والآثام فقط، بل إلى الإخلال أيضًا بعقيدة التوحيد النقية وهو الأمر الذي لو تأصلت جذوره في العقول البسيطة صعب جدًا اقتلاعه منها؟

أما والعلم لو بحث باحث عن عِلل هذا الهبوط الهائل الذي وقعنا فيه بعد ذلك الصعود السريع، ما وجدها إلا في ترك السنن وأتباع البدع. ولو كان المجال أوسع من هذا؛ لأرينا المطالع أن البدعة الواحدة قد يتبعها جملة عوامل شرية لا يراها إلا من ينظر للأشياء بمنظار العلم، وأن هذه العوامل متى رسخت قواعدها وثبتت دعائمها؛ أنبنى عليها داء من أدواء الأمم، تظهر أعراضه وآثاره لكل مُشاهد، ولو كان هو نفسه كامنًا كُمون الأرقم

في جحره، ولا يظهر إلا ريثما يؤانس من حوله العجز عن ملاشاته؛

لهذه الأسباب كلها صار الشرقي المتنور مُلقى على عاتقه واجبان: أولهما– تفهيم العالم أجمع أن الدين الإسلامي فضلًا عن كونه بريئًا من الأضاليل التي ينسبها إليه بعض الكتبة ومنزها عما يفعله العامة على مرأى من المتفرجين؛ فإنه ناموس السعادة الحقيقية وملاك المدنية الصادقة، حتى ينبعثوا إلى احترامه ومحبته كما يحترمه ويحبه بعض الفلاسفة الكبار الذين درسوه واعتقدوه، هذا الواجب يُلقى على عاتق أبناء هذه الملة الذين أسعدهم الجِد بتعلم اللغات الأجنبية.

ثانيهما– أنْ يسعى عقلاء هذه الأمة في محو البدع التي غصَّ بها العالم الإسلامي وصارت نقطة سوداء في جبين الشرق، وموضوع استهزاء كل من عنده مسكة من العقل، هذا الواجب أشد ضرورة من الواجب الأول، وعليه يُبنى صلاح هذه الأمة وقوامها، فعسانا نلتفت إليه قبل أن يستفحل الداء ويعز الدواء، وإلا فالعاقبة وخيمة والعُهدة عظيمة. قال عليه الصلاة والسلام: «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم فتنًا كقطع الليل المظلم تَدَعُ الحليم حيران».

هذه الأفكار كانت تجيش في صدري منذ أربع سنوات، وأنا إذ ذاك في سن البدء في العمل للوطن، فلم أرَ أفضل لخدمته من هذه الوجهة فثابرت من حينها بهمة لا تعرف المِلل على درس ما يؤهلني إلى فهم حقيقة الإسلام، حتى آنست من نفسي بعض القوة على القيام ببعض هذا الواجب الأقدس. فابتدأتُ أعمالي بتأليف كتاب باللغة الفرنسية: نفيت

فيه عن الإسلام كل تهمة ألصقها به المفترون، وأثبت الأدلة الحسية وبالاستناد على البداءة العلمية أنه روح المدنية الحقيقة، وعين أمنية النفس البشرية ونهاية ما ترمي إليه القوة العقلية، وأن كل رقي يحصل في العالم الإنساني ليس هو إلا تقربًا إلى الديانة المُحمدية. ولم أكد أنتهي من تأليفه، حتى بعثتني نفسي إلى ترجمته إلى لغتنا العربية الشريفة؛ لكي أكون قد قمت بعض الواجبين المطلوبين في آن واحد.

على أني كلَّفت نفسي تجشُّم المصاعب في هذا العمل، لا بقصد اتخاذ اشتغالاتي فيه تسلية لي على ما أضعت من وظيفة أو شهرة؛ كلا بل غرضي الوحيد من هذا العمل هو: إقامة الحُجج العلمية على أنَّ دين الإسلام ليس بالدين الذي يتناساه ذووه، أو يلوي الكشح عنه متبوعة. وأنه ليس بالدين الذي تُعارضه العلوم العصرية والحقائق الفلسفية، بل هي مما تزيده تثبيتًا وتمكينًا وتزيد متبعه إيمانًا ويقينًا. وأنه كان يجب أن يجد من طلاب العلوم الجديدة أنصارًا أولي قوة ومكانة، لا أن يرى منهم إعراضًا وابتعادًا يُدلان الرائي على ما الإسلام بريء منه وبعيد بعد السماء عنه.

قد كفى المسلمين إعراضًا عن دوائهم وإغضاء على دائهم، فلا يكونوا كالأبله الذي يحمل الدرياق الشافي في ردنه، فيغفل عنه ثم يَفغر فاه؛ منتظرًا أن تمطر عليه سحائب الأوهام من سماء الأحلام غيثًا يطهره مما به ويشفيه من أوصابه. أليس بعارٍ على متنوري هذه الأمة أن تبقي حقائق دين الله مختبئة في مكاتبهم في مطاوي مجلداتها وهم مغرورون بزخارف أفكار البشر. مما يسمونه بالنظريات الفلسفية حالة كون النسبة بين هذه الأفكار

كلها وبين ما لديهم من آيات الحكمة التي أسدلوا عليها أستار النسيان أكبر بما لا يقدر مما بين أفكار الصبيان وبين أفكار حكيم مارس الأيام وخير الأنام وعاش مائتي عام؟ ألا تُتوق نفس شرقي متنور إلى الوقوف على ذلك السر الأعظم والناموس الأقوم الذي ساد حينًا قصيرًا على سكان جزيرة العرب على ما كان بهم من شظف ووحشية؛ فأخرجهم من ظلمات الجهالة والرذائل إلى أنوار المدنية والفضائل؟ ما فائدة العلوم إذا لم تُحبب إلينا معاشر شُبان المشرق أن نُكتنه هذا السر العجيب والتطور الغريب الذي لو طبقناه على ما لدينا من المعارف المدرسية لا نستطيع أن ندركه ولو بوجه عام؟ هل فيما قرأناه من التاريخ ما يدلنا على إمكان تطور أمة بأسرها وانتقالها من حالة الوحشية إلى المدنية في مدة لا تتجاوز ربع القرن؟ اللهم لا.

ما هو ذلك التطور المدهش الذي دخلت فيه الأمة العربية في مدة ثلاث وعشرين سنة؟ هل هو أمر عادي يستطيع الإنسان أن يدرك سره ويكتنه أمره بجولة فكرة أو إلقاء نظرة؟

كانت الأمة العربية قبل الإسلام كما يعلمها كل إنسان منقسمة إلى قبائل عديدة وفصائل شتَّى كلها متوارثة الأحقاد والضغائن متأصلة الأحن والدفائن. واقعة فيما بينها في حروب دموية وغارات جاهلية. لا وِحدة تُلم شعثهم ولا جامعة توحد كلمتهم. وكانوا واقعين من جهة التدين في أخس أنواع الوثنية. ومن جهة العادات في أشدها بُعدًا عن الحياة المدنية. فلا قانون يُصلح من حالهم. ولا قاعدة يُبني عليها ضمان استقبالهم. وبالجملة

كانوا بمكان من الاختلال والفاقة وسوء التربية تخطاهم فيه كل الملوك الفاتحين، مثل: بختنصر، وقيروش، والإسكندر، وغيرهم، فماذا كان من أمرهم بعد بعثة سيد الأنام صلى الله عليه وسلم بنحو بضعٍ وعشرين سنة؟ كان من أمرهم أن توحَّدت كلمتهم، وأتحدت وجهتهم، ووجد فيهم قانون يضمن تهذيبهم ويكفل رقيهم وتركوا جميعهم عادات آبائهم التي توارثوها وألفوها، حتى كادوا أن يعبدوها وخرجوا من ظلمات الوثنية إلى أنوار العقيدة التوحيدية. وقادوا من وسط وهادهم ونجادهم يحملون للحافقين أنوار المدنية ويؤسسون أركان العدل والإنسانية في جميع أرجاء الكرة الأرضية، وسادوا أغلب ممالكها بأفضل أنواع السلطة الاعتدالية. وبالجملة صارت دولتهم دولة العالم بأسره، بينما كان غيرهم يُهيم في وديان الجهالة ويضرب في ليلاء الضلالة.

هذا هو التطور الغريب الذي دخلت فيه أمة العرب في سنين قلائل، بعد أن كان قد مضي عليها بضعة آلاف عام وهي كما هي لم تترق عما كانت عليه قيدشبر. هل بعد هذا يصح أن يتصور عاقل أن هذا الرقي السريع كله حصل بدون قواعد محكمة وأسس ممدينة؟ وهل بعد هذا يصح أن يتصور عاقل أن تلك القواعد والأسس تشابه ما لفظه أمثال: أرسطو، وليكورج، وسولون من الحكم البسيطة والقواعد، التي لو أصلحت اليوم شيئًا أفسدت في الغد أشياء كثيرة؟ كلا. اللهم إن المسلمين عن أسرار دينهم لمحجوبون، وعن بدائعه للاهون. فهبهم اللهم ميلًا إلى ترييض نفوسهم في حقائق دينك السرمدي وقانونك الأبدي! وهب اللهم

بصائرهم قوة تمتعهم من دينهم بما متعت به آباءهم الأقدمين! إنك رحيم بالمؤمنين.

وهبني اللهم من الثبات والجلد في هذا الموقف الحرج ما يسدُّ خلة عجزي وقصوري عن الخوض في مثل هذا العباب العظيم! حتى أؤدي لأبناء وطني خدمة هي أمس بحياتهم من كل ما عداها وأصلح لرقيهم من كل قاعدة سواها، وأجعل اللهم عملي هذا خالصًا لوجهك الكرم نافعًا لأمة نبيك الفخيم إنك واسع عظيم! أمين.

سنة ١٨٩٨

مقدمات

قد رأينا أن نمهد الكلام على الإسلام بمقدمات ضرورية جدًا تنشئ للمطالع فكرة عامة على حالة الإنسان وتكاليف الحياة ونواميس الرد والتأخر التي تتجاذبه وطبيعة النظامات، التي تنازعت السلطة على الإنسان من قديم الزمان إلى الآن والخلاف الناشئ من زمان مديد بين العلم والدين وغير ذلك حتى لا يكون مطالع كتابنا محتاجًا في فهم ما نرمي إليه إلى بحث ولا تنقير وليستطيع أن يرى بعينه بطريقة حسية أن الإسلام روح المدنية الحقة وأن لا مدنية إلا به أو ببعض نصوصه.

هذا وليغفر لي القراء الكرام كثرة إستشهادي بأقوال علماء أوروبا، فإني لم أقصد بذلك أن أستدل بكلامهم على صدق الدين. كلا، فإن الإسلام أجَلْ من ذلك وأعلا. بلى قصدي أن أُبرهن على أن كل النواميس المُمدينة التي سادت على أوروبا في القرون الأخيرة فنقلها من الظلمة إلى النور ليست بالنسبة لنواميس الإسلام إلا كشعاع من شمس أو قطرة من بحر. فأقول والله المستعان:

الإنسان

ما هو الإنسان؟ هل هو ذلك الجسم المادي اللي يتناوبه التحليل والترسيب فينمو ويقوى، ثم لمّا يُدركه الضعف والهرم يموت ويدفن فيستحيل إلى تراب تدوسه الأقدام؟ إن كان كذلك فليس هذا إلا حيوانًا

بسيطًا يَفْضُلُه الأسد بقوته والفيل بعظم جثته والقرد بعَدْوِهِ وسرعة حركته، ولِما كان له من الأهمية في هذا الوجود ما يدلنا عليه ماضيه وحاضره. أما وأبيك لو كان الظاهر عنوان الباطن في كل شيء؛ لكان شأن الإنسان في هذه الطبيعة الكثيرة العوامل شأن الريشة الخفيفة بين تيارات الأعاصير الشديدة يدفعه تيار ويَرُدُّهُ آخر حتى ينتهي وجوده على أسوأ ما ينتهي إليه وجود الضعيف مع مغالبيه الأقوياء. كلا إن في الأمر لسرًا مكنونًا ورمزًا مصونًا كم في العلم به من فائدة تهدينا في الاستقبال، وفي الجري عليها ضمانة لحسن المآل.

أَدرُس الإنسان من مبدئه، ثم أنظر إليه في وقتنا الحاضر؛ ترى عجبًا يُذهب بالعقول، وسرًا تعجز عن إكتناهه الفحول: ترى آيات تُدهش الأفكار وتستوقف الأنظار. ترى ماذا؟ ترى كائنًا عاري الجسم لين البشرة رقيق الحاشية ضعيف الساعد عديم السلاح أُلقى به في هيجاء هذه الحياة وحيدًا فريدًا.. وقذف به في تيار هذا الوجود طَرِيدًا شريدًا يرى بعينيه الجبال الشم فيفرق من خيالها والغابات الفيحاء؛ فيذهُل من تقلُّب ظلالها والقبة الزرقاء بنجومها الزهراء فتهيبه سِعتها ورِفْعتها. ويسمع زئير الضياغم في الغابات فيكاد يصعُق منه فرقًا، أو يتميز رهبًا وهو بين تلك الدهشة والوحشة يُخِزُه الحر بلفحه والبرد بنفحه.. ويؤلمه الجوع بحدته، والعطش بشدته.. كان هذا حال الإنسان في مبدأ أمره فماذا ترى من حاله الآن؟ ترى أن هذا الكائن الضعيف قد قاوم كل عوارض الطبيعة المُسلَّطة عليه بجَلَدْ وثبات مدهشين وصارعها على قوتها وبطشها مُصارعةَ البطل المِغوار

بقوى ليس في زنده مستقرها، وجِلد ليس في جسمه مركزه، حتى تغلب عليها وهو لم يكتف بذلك.. بل أسَرَها أسرًا وأستخدمها لأمانيه وآماله كما يستخدم الملك المنصور أسراء الحروب. ترى ذلك الكائن على ما به من لين وضعف قد أظهر من ذلك اللين صلابة واجهت الجبال الشم؛ فنسفتها نسفًا وعدَّت على الصخور فسحقتها سحقًا، وتوجهت للحديد المتين فأذابته إذابة، وأبدى من ذلك الضعف قوة؛ أقتادت القساور صاغرة بين يديه فتراها تخضع إليه وتلعب عند قدميه لتُقِرْ عينيه!

هل بعد هذا التدبر العلمي يُقال أن الإنسان هو ذلك الجسم المادي الضعف؟ كلا، بل لابد أن يكون ذلك الجسم الطيني غلافًا لسر مكنون، إن غاب عنا جوهره فقد دل عليه أثره. ذلك السر هو معنى الإنسانية وواهب الميزة للإنسان على غيره من أصناف الحيوان. نعم، هذه بديهةً لا تحتاج إلى إثبات، ولكن ما هي تلك المعنى الغريبة التي بسكناها في ذلك الجسم المادي جعلته مَلِكًا لجميع الكائنات الأرضية وسلطانًا، ليتصرف فيها تصرف المالك الشرعي في ملكه؟

لو كانت تلك المعنى الإنسانية مما تقع تحت سلطة المشاعر وتدخل ضمن دائرة المحسوسات؛ لسهُل على الباحث درسها درسًا مدققًا، أو لو كانت هي من طبيعة معنى الحيوانية محدودة الغايات والانفعالات؛ لكان المعاني لاكْتِنَاه أسرارها لا يُكلف نفسه من المشاق ما يربو على ما يبذله الباحثون عن طباع النمل أو الميكروبات. ولكن كان أمرها بخلاف ذلك على خط مستقيم. فأنظر إلى الإنسان نظرة مُمعِن، تراه جامعًا للمتناقضات

جمعًا يصعب معه تحديد خصيصة من خصائصه بوجه التحقيق شاملًا للمتعاكسات شمولًا تضيق عن حصر آثاره قاعدة كل تدقيق، كأن هذه المعاني الإنسانية بحر لا يُدرك غوره مسار العقول ولا تنتهي إلى سواحله خطرات الأفكار البعيدة المرامي.

إذا نظرت إلى الإنسان من جهة أوصافه المُكتسبة فيه فلا تستطيع أن تنتهي إلى رابط يربطها ولا ناموس يضُمَّها. فبينما ترى رجلًا قد عرف قدر الاعتدال، وأدرك سر الكمال؛ فقاس أمياله على مقياس الرؤية والتدبر، ووزن أعماله بقسطاس العدل والتوسط، ترى عن يمينه رجلًا ثانيًا سَئِمَ الدنيا سآمة لم يرَ معها مطعمًا في لذة ولا مطمحًا في ثروة، وكره إليه العمران كراهة حَبَّبت إليه سُكنى قذفات الجبال وحيدًا فقيرًا لا يملك فتيلًا ولا نقيرًا. وأخذ يُناجي ربه أن يزيده كراهةً في دنياه وأن يُكافئه على ذلك برضاه، ثم ترى عن يسار ذلك المعتدل رجلًا ثالثًا سحرت الدنيا لُبَّه سحرًا أعماه عن رؤية الفارق بين المحاسن والمقابح؛ فأطلق لنفسه عنان الطيش، وأفتكها من قيود العادات والتقاليد، وأخذ يميل مع الشهوات حيث تميل، ويتقلب مع اللهو حيث يتقلب، وبينما ترى رجلًا قد نزل عن رتبة الحيوانات جهلًا وغباوة، حتى كاد يساوي الصخر جمودًا وخمودًا. ترى بإزائه عالمًا غزير المادة واسع الاطلاع.. منهومًا بكشف الأستار عن وجوه الأسرار.. لا يرى اللذة إلا نظرية يؤسسها أو ظاهرة طبيعية يُدركها. وبينما ترى شخصًا أستحوذ عليه حب الحياة حتى أورده موارد الجُبن المخجل يظن الخيال طالبًا يطلبه أو عفريتًا يُرعبه. ترى تجاهه شجاعًا يطربه وقع

البيض على الخوذ، ودَوِيْ المدافع في جُدران الحصول ويرونه نظر دماء الأقران تسيل على الأرض كالأرجوان: قل لي بعيشك هل يمكن لمن نظر إلى حالة الإنسان من حيث قبوله لسائر الأوصاف الممكنة أن يدعي حصرها في قاعدة أو ضمها في رابطة واحدة.

ليس لأميال الإنسان حد فيقف عنده، بل كلما وصل إلى غاية؛ تاق إلى أبعد منها ووجد من نفسه المكنة على بلوغها، والقدرة على إدراكها، حتى إذا نالها؛ كان فرحه بحوزها باعثًا له على الاستزادة منها، ومُصغرًا في عينه ما كان فيه من قبل.

مضى زمن أتُّهم فيه مكتشف أمريكا ومخترع التلغراف والآلة البخارية بالجنون؛ لظن الناس استحالة ما كانوا يهمسون به في الأذان همسًا. وجاء زمن يقول فيه علماؤه أنه سيأتي وقت يكون الفرق فيه بيننا وبين أبنائه كالفرق بينا نحن وبين أَخَسْ الحيوانات.

هل وقف الطموح بالإنسان عند هذا الحد المدهش؟ كلا، إن الطمع الفكري بلغ عند الإنسان مبلغًا نظر به إلى حالة العلم الآن؛ فلم يرقه شيء فيه وصغر له الطموح عِظَمْ ما نال عقب تلك الجهالة الأولى؛ فنطق بلسان أحد علماء أمريكا قائلًا: إننا نمتاز عن أسلافنا في العلم بكوننا علمنا أننا جهلاء. أما هم فكانوا يعتقدون أنهم يعلمون شيئًا! ليت شعري ما هذه المعنى الإنسانية التي تشعر بعظمتها وجلالة قدرها لدرجة لا تعد ما هي فيه الآن إلا جهالة ظلماء؟ فهي تأنف أن تغتبط بما وصلت إليه من سائر الأسرار وترى أن أمامها غاية لا تحدها الأوهام ولا تصل إليها مرامي الأفكار.

أما نحن فلا يسعنا بعد هذا الإمعان إلا أن نحكم عن بينة بأن الفارق بين الإنسان والحيوان ليس هو النطق كما قال أرسطو، ولا هو التفكر بالقوة كما مال إليه فلاسفة العرب ولا هو الدين كما ذهب إليه المسيو كاتر فاج. بل هو قبول الإنسان للترقِّي العقلي والأخلاقي إلى ما لا نهاية له.. ووقوف الحيوان في درجة لا يتعداها؛ فتكون نسبة الحيوان إلى الإنسان كنسبة الإدراك المحصور إلى غير المحصور، وشتّان ما بين طرفي هذه النسبة.

إن كان لابد من الاستشهاد بقول عالم أوروبي في مثل هذه البدائة؛ فإليك ما قاله العلامة (لاروس) في دائرة معارفه الكبيرة بعد أن تكلم على رقي الإنسان ما نصه: «إن من التهور الشائن وضع حد لرقي الإنسان». وقال المسيو (رينان) المشهور في كتابه تاريخ الأديان: «أمعنت النظر في حال الإنسان فوجدته وقتًا من الأوقات يبذل وسعه ويستنفذ قواه لكي يتوصل إلى إدراك السبب الذي لا نهاية لحدود سلطانه ولكي يعلو على هذا العالم المادي. أليس هذا دليلًا محسوسًا على أنه بسمو محتده وبحسن حظه ممتاز عن هذه الأشياء المادية المحدودة؟ لا شك أن مشاهدة هذا الجهد من النفس لكي ترقي إلى السموات العلا تبعث في المشاهدة الميل إلى احترام النوع الإنساني الذي يجدر به هو نفسه أن يفتخر بعظمته افتخارًا». أنتهى.

ولكن كما قضى الله للنوع الإنساني أن يكون أهلًا لاعتلاء درجات كل ما يتصور من الفضائل، كذلك حكم عليه بأن يكون قابلًا للنزول إلى أخس درجات الرذائل: وفي درس تاريخ الإنسان أكبر عبرة لمن يريد أن يتفكر.

خُلق الإنسان على تمام الجهل بالكون الذي قذف به فيه بخلاف الحيوان، فإن الخالق جل شأنه وهبه من الإلهام أكبر مرشد له؛ لنيل ما يكفل له حياته ويحفظ لنوعه بقاءه فترات.. لا ينساق إلى الإفراط ولا التفريط لدرجة تؤدي به ونشأ مطبوعًا على الأعمال التي تُهيأ له راحة حياته من بناء مسكن وإعداد محل لائق لوضع صغاره فيه، إلى غير ذلك من الأمور التي يندهش منها الإنسان إذا عنى بدرس علم الحيوان. أما الإنسان فقد جُرِّد من كل هذه الخصائص بالمرة، وعوِّض عنها مزية الحرية في التصرف بالقوة الفكرية تصرفًا غير محجور.

وجد الإنسان وهو شاعر على ما به من ضعف وعجز بأنه مليك كل الكائنات الأرضية وزهرة هذه العوالم الكونية؛ فلم يثنه ضعفه وفاته عن التطلع للنقطة الرفيعة التي أُعدت له والتي يرى مثالها في وجدانه يتلألأ آنا ثم يختفي آنا؛ لينشأ له بين الرجاء واليأس باعث قوي على أعمال مواهبه وإجهادها، والجري وراء تلك المنصة العلياء التي تحس بها نفسه إحساسًا سريًا بدون علم بماهياتها ولا كيفيتها. أختلف أفراد النوع الإنساني على حسب الأمزجة والأمكنة والأزمنة في ماهية أمنية النفس البشرية وهم كل منهم على قدر ما خوَّلته المكنة وأمكنته الفرصة بالبحث عن تلك الرغيبة الروحية، فظنها بعضهم في الملاذ البدنية والشهوات البهيمية؛ فدأبوا على اختراع أنواع الزينة ومهيئات الطرب، فنشأت من ذلك الصنائع الجميلة على اختلاف أنواعها وتباين أصنافها مع ما أستلزمته في أثناء البحث عليها من قواعد الصنائع النافعة والأعمال المفيدة. وزعمها بعضهم في علو

الكلمة وبعد الصيت فجد في تدويخ البلاد وتذليل العباد؛ فنشأت من ذلك الحروب والغارات مع ما أستلزمته من معارف ومعلومات ومن صعود لبعض الأمم وهبوط للبعض الآخر.. مما له إرتباط قوي بتدرج الشعوب في مدارج التقدم والحضارة. وحسبها غيرهم في ترويض النفوس وتهذيب الطباع وحرث القوة الفكرية وأستثمارها؛ فنشأت من ذلك علوم الأخلاق والأبحاث العلمية والعملية والمسائل الفلسفية مما كان له أثر عجيب في تنمية المادة العقلية وتوسيع نطاق القوة الفكرية. وعلى هذا النسق من إختلاف المشارب والوجهات في البحث عن السعادة النفسية المتمناة تم للإنسان من الرقي ما بلغه الآن. وسيستمر هذا الإنفعال النفسي وراء هذه السعادة المرجوة، حتى يتم الإبداع الذي أراده الله أن يتم على يد هذا النوع الإنساني.

في أثناء هذا التدافع المدهش كان الخالق الحكيم جل شأنه يرسل رجالًا هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فيوحي إليهم الطريقة الملائمة لعصورهم، والتي لو أنتهجها الإنسان لوصل إلى سعادته من أقرب الطرق الموصلة إليها. فكان يتبعهم من الناس من قدر الله أن يكون على أيديهم نقل النوع الإنساني من حالة إلى أرقى منها؛ فيستمرون عاملين بما أخذوه من نبي زمانهم بُرهة قصيرة ثم يعودون إلى تدافعهم الأول بعد أن يحرفوا نصوص كتبهم تحريفًا يجعلها غير صالحة لقيادتهم وضبط أهوائهم، ولا يزالون كذلك حتى تهيئهم نواميس الحياة إلى صعود درجة أخرى من سُلُّم المدنية والترقِّي؛ فيرسل الله تعالى إليهم رسولًا من أنفسهم يكون في

مقدمتهم عند إعتلائهم تلك الدرجة الجديدة. وهكذا كان شأن الأمم كافة من التجالد والتدافع حتى تم نمو العقل الإنساني وصار مقتدرًا على تمييز الغث من السمين فأرسل الله سيد الأنام وخاتم الأنبياء محمدًا صلى الله عليه وسلم بالشريعة الخالدة والدين الأبدي. ولا يهولنك ما ترى من آثار التجالد الفكري والتضارب العقلي بين سكان هذه الكرة، ولا تستنتجن من ذلك قرب ظهور نبي آخر فإن كل ما تراه حاصلًا أمامك من هذه الجلبة والصياح والتجاذب ليس هو إلا إعدادًا لأبناء القرون الحاضرة والمستقبلة إلى فهم حقيقة الإسلام وإدراك أسراره. نعم «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أو لم يكفِ بربك أنه على كل شيء شهيد».

تكاليف الحياة

الحياة وما أدراك ما الحياة: حرب عوان وأهوال تشيب لها الولدان وتخضع لها الرؤوس ذوات التيجان. يتساوى فيها المليك والمملوك والسرى والصعلوك والجهال والعلماء والأغبياء والحكماء. بل هي مورد تتزاحم حوله النفوس ولا تفوز بحسوة منه إلا بعد أن تصادم العظائم وتتجشم الدواهي الدواهم وهي: حسوة ممزوجة بالأكدار، مشوية بالأوضار، يغص بها حاسيها غصة تُعجز الطب والأطباء، وتتعاصى على كل دواء.

حياة الإنسان وما أدراك ما حياة الإنسان: مدة قصيرة الأمد، كثيرة الهم والكمد، يكون الإنسان فيها هدفًا لسهام الحوادث وعُرضة لنبال الكوارث، لا تغني عنه الجنن الواقية ولا الدروع المضاعفة ولا الحصون

الشامخة ولا البروج الشاهقة. سهام ونبال تُلازمه من يوم ميلاده ملازمة العرض للجوهر، فيشُبْ الإنسان ويشيب وهي لا تفتر عن وخزه ولا تقصر عن طعنه، حتى يسود الإنسان أن لو كان من بعض الحيوان، ولو يمن لعلو مكانته بما تشيب لهوله نواصي الأجيال، ولو تستطيع أن تحتمله شوامخ الجبال، كلا. «إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبينَ أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان».

لست أيها الإنسان ملكًا فتكون بمعزل عن دواعي الشهوات ومنغصاتها، ولست حيوانًا فيضعف فيك الشعور بتأثيرات الحياة وويلاتها.. بل قضى خالقك –جلّ شأنه– أن تكون بين هاتين الرتبتين في منزلة أن حفظتَ لنفسك فيها حق حرمتها خدمتك الأملاك، ورفعتك على الأفلاك، ولو قصرت في واجب نفسك وخضعت السلطان البشرية فيك؛ لنزلت إلى منزلة من الضعة يعافها أخس الحيوانات ويأنف مما أنت فيه من السوآت. هذا حظك قد خطه بارئ النسم من القدم، وأودع فيك من الإستعداد والقابلية ما يسمو بك إلى المحل الذي يليق بك من الكمال والرفعة. وأسكن فؤادك عقلًا يُضيء عليك حوالك الأحوال ويفكك عنك أغلال الأهوال، لو أحسنت إستشارته وأجريت إشارته. ولم يُخلق ما تراه أمامك من المصاعب والمصائب لتعذيبك على غير جدوى، أو لكي يُسمع عويلك من البلوى، بل تذكرة تقيمك من عثرة وتحميك من كبوة وتزعلك من هلكة: «ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون». نعم، ليس ما تراه أمام عينيك من

الأهوال أو ما يعترض أمانيك من تقلبات الأحوال، عقبات أمام سعادتك أو موانع دون أمنيتك. فلا تكن كالطفل العاصي يزعه أبوه عن البطالة فيظنه قاسيًا عليه غير حان إليه. كلا: «الله أرأف بعباده من هذا العصفور على فرخه». حديث شريف.

سبق أن بيَّنَّا في مقالنا السابق أن الإنسان مستعد لأن يرقى أَوَجْ الملكوت الأعلى ومستأهل لأن يتسنم هذه الرتب القصوى مما لا يحده وصف الواصفين أو تخيلات الشعراء المدّاحين. فإذا تَقرَّر لديك ذلك؛ فما هي الوسائل التي يجب أن ترفعك من معهد هدا الطين الميت إلى محتد ذات النور الحي؟ أتريد أن تنزل إليك ملائكة من السماء فيقودونك بيدك إلى ما أعد لك من مقاوم الشرف ومنازل الرفعة؟ أن قلت نعم، فما الفائدة إذن من إبداع الخالق فيك هذه المنح العلوية العظمى مما لو ألتفت إليه قليلًا ولو قدر إلتفاتك إلى نقش الدينار ورسمه لعلمت أن في فؤادك كنزًا لو أنفدت عمرك في تدبر ذخائره لما وصلت إلى عشر عشيرها؟ كنز يُصغِّر إليك شأن الذهب الأبريز والجوهر العزيز.. ويبعثك قسرًا عنك لإلتماس الرتبة التي تليق بعظمتك من هذا الوجود. ويريك أن سفاسف الأمور ودنايا الأعمال ليس مما يجوز لمثلك أن يُعيرها فكرًا أو يمر بها مرًا: «ما وسعتني أرضي ولا سمائي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن اللين الوادع». حديث قدسي.

أية أيها الإنسان! إنك عن نفسك لمحجوب، ومن أشرف مزاياك لمسلوب، ليس مثلك من يهتز لخرافات الشعراء فيذم معهم الزمان

والمكان، ويتباكى على ما سيكون وما قد كان. ليس مثلك من يستميت لكِسْرَة، أو يقتل صديقه لأجل إبرة، أو يبيع رداءه في سبيل الخمرة! ما هذه الغفلة! ما هذه السكرة! بل ما هذا الموت! أضعت أيامك في تخيل المصائب والخشية من النوائب. وصرفت همك في أوهام يستنكفها الحيوان ويمجها العرفان؟ هل يليق بمن يُحصر الكون بكواكبه والعالم بعجائبه في فكره وهو جالس مع صاحبه أن يتدنّى إلى درجة من الإستكانة والمهانة يُضيع بها تلك المواهب العظمى والمنح الكبرى لخرية يفعلها، أو غيبة يتلمظ بها، حتى إذا تجلَّت له نتائج تهامله وابتدأت أن توقظه من سُباته؛ أرتعدت فرائصه رعبًا، وأرتجت مفاصله رهبًا، وأخذ ينادي وا مصيبتاه! ثم يأخذ يبكي بكاء الثّكْلى، ويُذرف الدموع الحرى مغمضًا عينه عن النظر، وبصيرته عن تبين العِبَر؛ فيضيع بجهله مزية ما يرفعه إلى محتده الأعلى ومركزه الأسمى؟ «ومن الناس من يعبد الله على حرف، فإن أصابه خير أطمأن به، وإن أصابته فتنة أنقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين».

إن الذي تسميه مصائب أيها الإنسان ليس هو إلا يَد الجبار الأعلى تستلفتك إلى الغاية التي خُلقتَ لأجلها، وتبعثك من جدث الجمود الذي أوقعك فيه، تُماديك في الغي المزري مع ما انطويت عليه من الغرائز الشريفة والنحائز المنيفة. نعم، إن الذي خلقك من الطين الأصم وأراد أن يعلو بك إلى أعلى مراكز الكمال؛ سلط عليك عوامل ثلاثة لو تبصّرت في مصاعبها وتدبرت في أسبابها ومسبباتها؛ لرأيت أن طريق السعادة التي تُنشدها وتموت

بحسرة دونها هو: بين يديك وأمام عينيك وما عليك إلا أن تجري على سننها القويم وصراطها المستقيم لتصل إلى غرضك العظيم: «إنا هديناه السبيل».

ما هي تلك العوامل الثلاثة المهمة؟ هي: الطبيعة ونفس الإنسان وبنو نوعه. أما الطبيعة فهي: مُحتدة جسم الإنسان بها ترتبط سعادته المادية ومنها ينبوع راحته الحسية. قُذف الإنسان من يوم خلق إلى هذا العالم المادي، فتلقّاه بنواميسه الكثيرة وعوارضه الشديدة، وهو كما وصفه العلامة (لينيه) عاري الجسم وبدون سلاح فوخزته الشمس بحرارتها، والأرض برطوبتها والسماء فأمطارها والصحاري بسمومها وأعاصيرها والوحوش، بأنيابها وأظفارها فصار الإنسان بين هذه العوامل هدفًا لسهام لا مُجن بقية منها ولا وسيلة تبعده عنها. فلو كان كغيره من الحيوانات محدود القوى الإدراكية؛ لما أمكنه أن يعيش طرفة عين، ولكن الله جل جلاله قد قذف به إلى هذه الأهوال بعد أن منحه من المواهب ما يستطيع بها أن يتغلب على الطبيعة ويأسرها؛ فلم تقل عزيمته ولم تثبط همته بل قاتلها بسلاح فكره الحديد وأبتكر من الصنائع الأولية ما يحميه منها وقتًا ما. ولم يزل يجد ويجتهد في تحسين تلك الطرق الواقية حتى أرتقى شأنه شيئًا فشيئًا، فصار يتمكن من بناء البيوت بعد سكنى المغارات، ويحرث الأرض ليستخرج خيراتها بعد أن كان يتغذى بجذور الأشجار وأوراقها وهكذا، ولكن الطبيعة لم تغفل عنه طرفة عين بتقدير العزيز العليم؛ كي لا تركد همته وتسكن حركته؛ فصار كلما أتقن عملً؛ عدت الطبيعة عليه؛ فيلتجئ إلى تحسينه.. ولم يزل ذلك التدافع بيننا وبين الطبيعة إلى اليوم.

كان من نتائج هذه الحرب العوان.. ارتقاء الإنسان ماديًا للدرجة التي نرى بها لندن وباريس من عجائب الصناعات وغرائب المكتشفات، مما لو حدث به الشرقي؛ لرمى مُحدثه بالجنون؛ لعدم تصوره ما يقول هذا الارتقاء يستلزم بالطبع ارتقاء أدبيًا عظيمًا؛ لأنه لا يأتي إلا بأعمال القوة العقلية وإجهادها وهذه القوة هي: كما لا يخفى محتد كل الفضائل البشرية.

فانظر بأبيك إلى ما كان يسميه آباؤنا مصائب وجوائح كيف بعث الإنسان إلى الارتقاء وحسن الحال وجذبه رغم أنفه من طور البهيمية إلى طور الإنسانية؟ هل بعد هذا يصح أن نذم تلك المصائب، ونتبرم منها بعد علمنا بأنها السائق الوحيد للفكرة الإنسانية إلى البحث عن أسباب السعادة والرفاهية؟ أما يجب علينا بعد هذا ألا نجعل جَزعُنا من المصائب الطبيعية غشاءً كثيفًا بيننا وبين استنباط الطرق إلى تخفيف وطأتها واستئصالها مرة واحدة؟ فإذا كان في مكنة الفكرة البشرية أن تخترع آلة تجتذب بها الصواعق صاغرة، وتُلقى بها إلى أسفل سافلين، فكيف لا يكون في مكنتها أن تبتكر طريقة بسيطة تُخفف من ويلات دودة القطن.. التي يقف فلاحنا أمامها صاغرًا يضرب صدره ويُمزق نفسه؟ رُزقت الأمم الأوروبية حسن التبصُّر في جوائح الطبيعة؛ فتراهم يتربصون لأحداثها بالمرصاد، فكلما ألم بهم حادث؛ هبوا يبحثون عن طريقة لإزالته، أو تقليل خطارته، ولا ينامون عن مشروعهم حتى يحققوه، علمًا منهم بأن في الفكرة الإنسانية من الأساليب ما يضمن حياة مستقبلهم كما ضمن حياة ماضيهم: هذا هو سبب من أسباب رقيهم المدهش الذي قاموا يُسيطرون

به على الشرق سيطرة الرفيع على الوضيع. فما لنا عن التذكرة معرضون؟

أما العامل النفساني على الرقي الإنساني فهو من أقوى العوامل وأكثرها تأثيرًا.. ولا يمتاز عن سابقه إلا في كونه معنويًا. يشعر كل إنسان في نفسه بأن وجدانه ميدان فسيح لشهوات تتوزعه، وأميال تتنازعه وآمال تتقاسمه مما لا يستطيع أمانته ولا أبطال تأثيره عليه مهما بذل من المجهودات في ذلك السبيل. ليست تلك الشهوات مما تنصاع لقوانين المحسوسات حتى يستطاع وزنها بقسطاس الاعتدال. ولا هاتيك الأميال مما تقبل التحديد حتى يرى الإنسان بعينه النقطة التي هو مُسوق إليها قسرًا، ولا تلك الآمال مما تخضع لأحكام القنوع، حتى يتسنى له أن يوقفها عند نقطة مخصوصة. بل قضى الحكيم المختار أن تنطلق هذه العوامل المعنوية من كل قيد، وأن تتجاوز كل حد، وأن تشذَّ عن كل رابطة حتى صارت بما أودعت من روح الحركة – تكاليف الحياة والتأثير– كأنها تيارات متعاكسة تتصادم في فؤاد الإنسان تصادمًا يهوله مرآه، ويرعبه منظره ولو كان هو نفسه محتدها ومستقرها.

أنظر إلى ذلك الرجل الرث الهيئة، الخلق السربال، الجالس في ظل تلك الدوحة، أتظن أن سكونه الظاهري دليل على سكونه الباطني؟ أو أن حالته من الفاقة نهنهت وجدانه عن تلك المطامح السرية والمعامع الضميرية؟ كلا. إن حاله ذلك لم يقلل فيه تلك الانفعالات النفسية عما هي عليه عند أكبر ملك جالس على أسمى أريكة لأمة متمدنة.

وُجد هذا الإنسان الضعيف على سمع هذه الكرة الأرضية وهو كما هو شيء غير محدود في جسم محدود أو بحر لا نهاية لسواحله في فواد لا

يزيد عن الكف مقاسًا، فلم يستطع أن يطمئن إلى شيء من الأشياء المحدودة أو يركن إلى كائن من الكائنات المشهودة إلا ريثما يتحقق أن ذلك الشيء ليس مما يصلح أن يكون سفينة له يقطع على ظهرها عباب ذلك البحر الزاخر الذي يسمع دوي أمواجه داخل فؤاده. نعم، بذلَ الإنسان وسعه من القدم في التجسس على ما لا تأنس نفسه إلا به؛ فأم كل طريق وقاوم كل تيار، وسلك كل سهل، وأقتحم كل حزن، ونزل كل غور، وصعد كل نجد، وتوقل كل رعن، وهو بين كل هذه الهمم الشديدة يصادف مانعًا فيرده، أو عقبة فتصده؛ فيزيد خبرة بماهية السائق له والمسوق إليه؛ فيُصلِّح من خطأه، ويقلل من غلطه؛ فيترفع قليلًا عما كان عليه في سابق بحثه؛ فتقابله الجوائح وتصادمه البوائق؛ فيعلم أن غرضه أسمى من ذلك. وهكذا حصل حتى تم له أن ينتقل من دور التسفل في البحث إلى دور الاستعلاء فيه. فصار الآن كلما طالبته النفس برغبتها، ألقى بنظره إلى السماء، بعد أن كان في السابق يلقى به إلى الأرض.

هذا العامل النفسي له فضل عظيم في حفظ الإنسان من الخضوع لمؤثرات البهيمية فيه، فلم يقع في الوحشية التي لو أتصف بها لكان كائنًا يتبرأ منه ويؤنف أن ينتسب إلى نوعه. وهذا العامل نفسه هو الباعث إلى تأليف علوم الأخلاق، والبحث في الآلهيات والنفسيات والمحرض على الجد في علوم الحكمة، مما كان ولم يزل له أثر عظيم في تحسين حالة النوع الإنساني.

أما العامل النوعي فهو: نتيجة العامل السابق ولم نسمه عاملًا قائمًا بذاته، إلا لما أنتجه من الانقلابات الشديدة في النوع البشري وفي الفرد الواحد.

قلنا أكثر من مرة إن الإنسان ممتاز عن سائر الكائنات بانطلاق آماله وشهواته عن القيود، ومجاوز إنفعالاته لكل ما يتصور من الحدود، بخلاف الحيوانات فإنها مطبوعة على الانصياع لنواميس ثابتة وقواعد عامة لا تتعداها ولن تستطيع ذلك. إذا علمت هذا فقل لي بعيشك ما كان يستحيل إليه حال الإنسان مع انطلاق خصائصه عن القيود لو لم يصادف في حياته أمورًا تجبره رغم أنفه إلى تحديد نقطة الاعتدال فيها، وإيقاف أمياله عند تخوم التوسط في سائر مراميها؟ أما ترى معَنا أنه كان يتلاشى وجوده أو يبقى ولكن مجذوبًا مع تيار واحد يحسب أنه سيوصله إلى غاية يقف عندها، ويتملى بسعادته فيها فيخونه الحسبان؛ فيظل مقذوفًا إلى حيث يلاقي حتفه على أسوأ حالة؟

إذا أعتقد رجل أن السعادة في الغنى وأنواعه غير محدودة في وجدانه ونهاياته غير مرتسمة في جنانه، فماذا يكون حاله في هذا السبيل المميت للعواطف البشرية إذا لم يصادف أمامه مانعًا يصده ليقف قليلًا فيرجع إلى نفسه رجعة يفهم بها أنه لو عاش ألف عام دائبًا على سلوك سبيل الثروة، لما وصل إلى غاية مما يؤمله، وأنه لو صار قارون زمانه مالًا فلن يكون أسعد أهله حالًا.

نعم، إن الذي خلق الإنسان، وأطلق مداركه من كل قيد، خلق بإزائها موانع تصدها لتزعها عن الإفراط، كما وضع وراءه دوافع تصيح به لتردعه عن التفريط. فأما تلك البواعث الدافعة له إلى الأمام فقد درسناها في الفصلين السابقين. وأما الموانع التي تعترضه لتجبره إلى الإعتدال في

مطلبه فأهمها: مقاومة بني نوعه ومزاحمتهم له في كل رغائبه: هذه المزاحمة تنقسم إلى قسمين عظيمين. أولهما– مزاحمة أفراد المجتمع التي يعد الرجل فردًا منها. والأخرى– مزاحمة الجمعيات بعضها لبعض في التسابق إلى ما يقيم كيانها من أمور هذه الحياة. هذان القسمان من التزاحم المعبَّر عنهما بتنازع البقاء هماز السببان الرئيسيان اللذان علما الإنسان رغم أنفه ثلاثة أمور عظيمة جدًا هي نظام حياة الأمم ومساكها:

أولها: عدم الغفلة عن الحق لأن الإهمال فيه على حسب قوانين الحياة مسقط له إسقاطًا كليًا.

ثانيها: معرفة قواعد العدل لأن الإنسان بالجوار يجر إليه أضغان أمثاله فتسوء حالته ويحرم من سائر حقوقه.

ثالثها: إحترام النوع الإنساني بأكمله. هذه الثلاثة أمور كما هي قوام أعمال الأفراد هي أيضًا نظام الأمم العظيمة المتمتعة بنعمة الإستقلال. فإن الأمة المستقلة إذا أهملت مجاراة جاراتها سبقتها إلى مطالبها وحرمتها من مقومات حياتها ولا يعد هذا ظلمًا منهن بل تعتبر هي الظالمة الأثيمة بإهمالها إستعمال خصائصها المودعة فيها. ومن يتأمل في حالة الجمعيات البشرية المختلفة ير العجب العجاب من آيات المسابقة. هذا من حيثية الأمر الأول. وأما الأمر الثاني وهو العدل فإن من أقل خصائصه في الجمعية حدوث الإطمئنان المتبادل على الحق والعرض وعدم الرهبة من العدوان عليهما جريًا مع الأهواء. ولا يخفى ما ينبني على هذا الإطمئنان المتبادل من التماسك بين سائر الأفراد والتضافر فيما بينهم على السعي

إلى تحقيق غرضهم المشترك وهو سعادة المجتمع. ومن يرد برهانًا محسوسًا على حسن نتائج العدل فليتدبر في أحوال الجمعيات الحاضرة والغابرة ليغني عن كثير من التطويل.

وأما عاطفة احترام سائر أفراد النوع الإنساني فإنها ما أنبثت في أمة حية إلا وقللت من حدة الأسلحة الموجهة إليها بتأثير تنازع البقاء وكسرت من نصال مجاوريها الطامعين فيها وأبطلت من عرامهم وشرتهم لدرجة تطمئن بها على نفسها أكثر من إطمئنانها لقوتها وعظمتها.

لنرجع إلى ما كنا بصدده فنقول: إن هذه الثلاثة العوامل الرئيسية (الطبيعة ونفس الإنسان وبنو نوعه) مع النواميس الكثيرة الثانوية التي تستلزمها هي بواعث الرقي الإنساني قدرها الخالق جل شأنه تقديرًا لأجل أن ترفع الإنسان رغمًا عنه من درجة الوحشية إلى درجة المدنية أو السعادة الإنسانية وهي عينها بحث الباحثين وغرض العلماء المحققين من منذ آلاف من السنين إلى هذا الحين.

الدين والعلم

إن المنابذة بين رجال الدين ورجال العلم ليست بقريبة العهد، فإن التاريخ يدلنا على أنه من منذ أزمان بعيدة جدًا كانت المشاحنات والمشاغب قائمة بين الطرفين في أغلب الأمم، إلا أن العصور المتقدمة كانت تمتاز عن عصرنا الحاضر في قساوة تلك المشاكل وصرامتها. فإن كثيرًا من فلاسفة الأمم حكم عليهم بالإعدام بالسم أو الحديد أو النيران لمحض كونهم قاموا ينيرون عقول مواطنيهم من الأوهام التي تحد بشأن العقل وتطفئ من نوره. أما في عصرنا الحاضر فإن العلم على ما قاله المسيو (برتلو) أحد نظار خارجية فرنسا وأكبر علمائها الكيماويين قد نال حريته المطلقة وصار لا يخشى سيطرة الدين عليه. لقد صدق المسيو (برتلو) فإنا نتلو مؤلفات القوم العلمية فلا نرى إلا طعنًا على الأديان وتنديدًا بها يدلنا على أن القوم قد مرقوا منها مروق السهم من الرمية ولم يكفهم ذلك، بل أخذوا ينذرونها بالإنمحاء العاجل لعدم إنطباقها على النواميس المرقية للإنسانية ولا على القواعد العلمية.

ألف المسيو (بنجامن كونستان) كتابًا سماه (الدين وينبوعه وأشكاله وترقيه) بحث فيه عن العلل التي أنهكت جسم الجمعيات البشرية من جراء الإعتقادات الباطلة ثم حكم بأن مداواة هذه العلل لا تتأتى إلا بحرية الضمير وحرية الإعتقاد والحرية الشخصية وبالإختصار كل الحريات الضرورية ثم قال: «بهذه الطريقة تنتفي الأديان عن أدرانها ولكنا لا نخال

أن ذلك يتحقق مطلقًا لإعتقادنا أنها لن تترك شيئًا من أسسها. ولكن بما أن هذه الأسس تناقض العلم وتعارضه فيكون من المقرر الثابت إنمحاء الديانات وزوالها». نحن نعجب للغاية من كون مثل هذا العالم المشهور يحكم على جميع الديانات بدون إستثناء بالإنمحاء والزوال حال كونه لم يدرسها كلها طبعًا لأنه لو درس الإسلام الأول ولو درسًا سطحيا لتحقق قبل كل شيء أنه ليس فيه أسس تناقض العلم كما يتهم به سائرها. ولكنا في هذه المقالة سنقتصر على إيراد أشد المطاعن على الأديان وجهات الضعف فيما نقلًا عن أشهر علماء أوروبا ليقف قارنا على أتجاه الأفكار الأوربية العلمية وليتحقق بعد أن نورد عليه أسس الإسلام أنه هو حقيقة أمنية النفوس وحظية الأرواح.

قلنا أن المسيو (كونستان) قد أنذر جميع الأديان بالزوال والآن نقول أنه علل ذلك تعليلًا فلسفيًا فقال: «إن كل قاعدة مهما كانت نافعة في الحال فلا بد أن يكون محتوية على جرثومة تعارض الرقي في الإستقبال لأن تلك القاعدة تأخذ بطول المكث شكلًا عديم الحراك يأبى على العقل البشري أتباعه في مكتشفاته التي ترقيه كل يوم وتطهره. إذا حصل ذلك ينفصل في الحال الإحساس الديني عن تلك القاعدة المتحجرة ويطلب سواها من القواعد التي لا تجرحه ولا تحرجه ولا يزال يضطرب حتى يصادفها».

درس القوم الإنسان درسًا مدققًا واهتدوا إلى الطريق الذي يجب أن يسلكه لكي يصل إلى سعادته وعلموا أنه لن يستطيع أن يؤدي الوظيفة المهمة التي أعدته لها العناية الإلهية إلا بإستعمال جميع خصائصه ومواهبه

الممنوحة له وعدم قتل عاطفة من عواطفه. ثم نظروا نظرة إلى الماضي فرأوا أن الذي أخّر العالم الإنساني عن الوصول إلى ما هُيّء له من مقاوم الرفعة هو: الإنصياع إلى أوامر رجال أدعوا أنهم قادة الأديان ورؤساؤه؛ فأنحوا عليهم طعنًا وتنديدًا، ورموا تعاليمهم بتهمة تأخير الإنسان وإهباطه، ومن ذلك ما قالوا (فويرباش) متهكمًا! «إن الفصيلة الدينية (وعلى الخصوص الفضيلة العليا) أي: فضيلة الأولياء، هي: أن تنبذ الحياة المدنية والسياسية، وأن تطرح سائر الأعمال والأشياء الدنيوية كأنها لهو باطل؛ لأجل أن تستطيع بدون ترويج لنفسك وبقلب منكسر أن تذبل في انتظار الجنة. وأن تقتل جميع عواطفك وأميالك الطبيعية وتُميت نفسك وتذللها.»

رأى علماء أوروبا – والدليل الحسي بين أيديهم – أن رقي الإنسان منوط برقي العلم ونموه، وأن نمو العلم ورقيه مرتبط بانطلاق العقل من قيوده، وتحرره من أصفاده، وعدم سيطرة شيء من الأشياء على الأبحاث العلمية، حتى لا يتأتى من تلك السيطرة ما حصل من نتائج المنابذة بين رجال الأديان ورجال العلوم في الأزمنة الماضية.. قال المسيو (بلوك): «أن رقي القوة الفكرية وحسن الحكم على الأشياء يتعلق بنمو العلم. وقد تحصلنا على هذه النتيجة بترقية معلوماتنا التي هدمت أركان كثير من ضلالاتنا السابقة من جهة ومن جهة أخرى بإستعمالنا لحسن النظر والتدقيق في الأشياء.»

لاعتقاد العلماء الأوربيين بأن حرية العقل والعلم هي: مناط كل السعادات المادية والمعنوية، تراهم لا يستطيعون أن يكتبوا تاريخ الضغط

عليهما إلا بمزيد الانفعال والتغيظ من الماضي، متشفّين من الذين يؤملون أن يُعيدوا الكرة. ولنترجم قطعة صغيرة من أقوال (لاروس) المشهور؛ ليرى القارئ مقدار التحمس الذي يتذكر به علماء الغرب ضغط الزمان السابق قال: «إن قلنا إن الإحسان يقتضي اعتقاد الأشياء المعقولة يقولون: كلا كلا. ثم يسعون في تذليل هذا العقل الإنساني الذي يدعي لنفسه حق التمييز بين الخير والشر، وبين العدل والظلم. حتى إذا أعمّوا عين العقل، وغشّوا باصرة البصيرة، لدرجة بها ترى الكرامات كأنها أمور معتادة، وتظن الأبيض أسود، وتعد الرذيلة فضيلة؛ يعود الدين فيقول أطيعوا. نطيع من؟ هل نطيع العقل؟ هل الواجبات الطبيعية؟ هل الإحساسات القلبية؟ هل النواميس الحقيقية المفيدة للإنسانية، والتي تنتج من تلك القواعد نفسها؟ كلا. ولكن أطع وأنت أعمى إلى الذي يحكم باسم الله، حتى ولو أمرك بقتل مليكك أو أبيك، أو بعمل مقتلة عامة؛ فإنه ليس لك لا روح ولا ضمير، إنما أنت ميت في الله».

إلى هذا الحد وأكثر وصلت مناوأة علماء أوروبا للأديان الموجودة. ولكن هل نستنتج من هذه المناوأة أنهم تركوا التدين بالمرة وزعموا أنهم استغنوا بعلمهم عن الإخبات والخضوع لخالقهم وخالق كل شيء؟ كلا. إنهم ليُقرُّون مع أصحاب الأديان ويزيدون عليهم في استدلالهم بالأبحاث العلمية. إن الإحساس الديني هو: غريزة النفس البشرية، لا تقل في الوضوح والتأثير عن الإحساس بضرورة الغذاء. قال (جييزلر) الفيلسوف الألماني في كتابه تاريخ الاعتقادات: «الدين مُخلد مثل خلود الإحساس

الذي يُنتجه، ولكن علوم الدين هي مثل سائر العلوم الأخرى يجب أن تكون قابلة للرُّقي على قدر الرقُّي العقلي، وذلك مثل العلاقة الموجودة دائمًا بين الحقوق وعلم التشريع. فالحقوق لا تتغير ولكن علم التشريع يجب أن يتغير ويتهذب على الدوام.»

وقال المسيو (أرنست رينان) في كتابه المُسمى تاريخ الأديان: «من الممكن أن يضمحلْ ويتلاشى كل شيء نحبه، وكل شيء نُعده من ملاذ الحياة ونعيمها. ومن الممكن أن تَبْطُل حرية استعمال القوة العقلية والعلم والصناعة. ولكن يستحيل أن ينمحي التدين أو يتلاشى، بل سيبقى أبد الآباد حُجَّة ناطقة على بُطلان المذهب المادي، الذي يَوَدُّ أن يحصر الفكر الإنساني في المضايق الدنيئة للحياة الطينية.»

ملخص الأمر أن علماء أوروبا الذين يُركن إليهم، مجمعون على أنه من المُحال أن تزول من النفس غريزة التدين، كما يستحيل أن تزول منها غريزة الحب أو البغض، ولكنهم قرروا مع ذلك – وكتبهم شاهدة عليهم – ألا دين من الأديان الموجودة يصلح لأن يكون الدين العام للجمعية البشرية المستقبلة ولا الحاضرة، لماذا؟ قالوا لعدم انطباق أساساتها على قواعد العلم، ولمعاكسة نصوصها لبدائة العقل. ولتقييدها الأمور تقييدًا يُنافي ما عليه المدارك البشرية من الحرية والانطلاق؛ ولذلك قال أحد فلاسفة أوروبا إنَّ الدين كان يبقي غير قابل للزوال والتلاشي إذا كانت قواعده مطلقة عن الحدود، وأصوله مجردة عن القيود، كما هو استعداد الإنسان للكمال المُطلق، وأهليته للرقي الذي لا يُحده وصف الواصف،

وتقولون إنه لو كان دين من الأديان الحاضرة يستطيع أن يؤلف بين العاطفة الدينية المغروسة في جبلة الإنسان وبين مطالب الحياة وواجباتها. ويسير بالجمعية البشرية إلى حيث هدتنا إليه الأبحاث العلمية من السعادة المرجوّة –للزم الاعتراف بضرورته اعترافًا قطعيًا. قال (لاروس) بعد أن ندد بنظامات الأديان ما يأتي: «ليست هي الديانة التي تُحث الرجل على أداء واجباته بل هو الفكر العام وقوة الطباع والعواطف التي تنشأ في داخلية العائلات تحت ظل ذلك الفكر العام. الذي هو نفسه يزيد تهذُّبًا ولطفًا، كلما تقدمت المدنية والمعلومات، فإن عُرفت الديانة بأنها: مجموع أفكار صالحة لربط جميع أفراد البشر إلى جمعية واحدة متمتعة بالفوائد المادية. كما هي متنورة في القوة العقلية، فقد حق لك إذن أن تقول إن الدين ضروري للنوع الإنساني» أنتهى.

هذا ومن الأدلة الحسية على أن العقل البشري مهما ترقّى وتقدم فلا يستطيع أن يعيش بلا دين: هو أن طائفة كبيرة من علماء أوروبا قامت بتأليف ديانة سمّتها (الديانة الطبيعية) ولم يُدخلوا إليها من القواعد والأصول إلا ما دلَّ على حقيقته البرهان، وقام بالدلالة عليه الحس والعَيَان. وستأتي في الكلام على أسس الإسلام على أهم قواعد ذلك الدين الجديد؛ ليرى المسلمون بأعينهم أن دينهم لم يترك مجالًا لجائل ولا مقاًلا لقائل: «أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعًا وكرهًا وإليه يرجعون».

ما هو الإسلام؟

أيُّ بليغ يتصدى للكلام على الإسلام، ولا يشكو من العجز التام والقصور البيِّن عن القيام بتوفية هذا المقام السامي حقه من التبيين؟ وأي حكيم يتعرض لتفصيل بدائع هذا الدين الحنيف ولا يُعدُّ نفسه من القاصرين المقصرين؟ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله.

أي مادة غريزة وقريحة سامية وعالمية شاملة يجب أن يتصف بها الإنسان؛ لأجل أن يُمكنه فهم وتفهيم هذه النواميس الأزلية الأبدية التي تدور عليها الأدوار وتمر بها القرون والأعصار، وهي هي كما كانت نواميس يزيدها القدم شبابًا. ويُلبسها الزمان من الجدة جِلبابًا. وتودعها الأجيال للأجيال. ولا يُدركها إلا الذين أنار الله بصائرهم بنور العرفان، وأطلع في سماء أفكارهم شموس البيان: «وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون.»

إنا نقول بتمام الحرية وكمال الاستقلال، والعلم نصيرنا، والعقل ظهيرنا –إن الإسلام: هو سنام الكمال الأعلى الذي خُلق الإنسان وأُعد للرقي إليه، والذي لأجله وُضِعت فيه غريزته الدأب والبحث عليه. بل الإسلام هو أمنية النفس البشرية التي فُطرت لتنشدها وتتحسسها كأعظم غاية لها وأسمى نقطة لكمالها. فهي لا تفتأ تتطور في كل الأطوار وتدور مع كل الأدوار بحثًا عن تلك الضالة العزيزة المنال، والتي في وجودها راحة لها من البلبال، ومقنع لها من كل الآمال والأميال.

نعم، الإسلام هو: الغاية الكمالية التي مات دون نيلها الحكماء. وفني قبل إكتناهها العلماء. الإسلام: هو القانون الأقوم. والناموس الأعظم الذي مَنَّ الله به على هذا النوع الضعيف؛ ليقيم أود حالتيه. ويغنم به سعادة حياتيه، ويجعله الركن الذي يعتمد عليه، ويهرع في الشدائد إليه. مَنَّ به على هذا النوع خاتمةً للأديان.. وتاجًا على هامة الزمان، وفي الحين الذي تم فيه نمو عقل الإنسان ليكون حُجة من الله على عباده تنطق بالحق وتصدع بالعدل، وترينا طريق الهدي بالحجة؛ لكي لا يكون الإنسان بعد أن بلغ رشده تَعلَّة في رفضه، ولا قوة في دحضه.

الإسلام: دين خدمته العلوم الطبيعية على غير علم من ذويها، حتى صارت نصوصه في هذا القرن أوضح من الضِّياء وأسهل جولانًا في العقل من الشعاع في الماء. فلا قاعدة دلَّت عليها التجارب. ولا نظرية تأسست بشهادة المشاعر يكون لها أثر في ترقية الإنسان، وتحسين بناء العُمران، إلا وهي صدى صوت آية قرآنية أو حديث من الأحاديث النبوية، حتى يُخيل للرائي أن كل جد ونشاط يحصل من علماء الكرة الأرضية؛ في سبيل رفعة شأن الإنسانية لا يقصد به إلا إقامة الحُجج التجريبية على صحة قواعد الديانة الإسلامية: «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق. أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد.».

بُناء على ما قدَّمنا فلن يمكن صدم تيار الإسلام بأي وسيلة كانت؛ لأنه لا فرق بين صدمه وبين صدم المدنية الإنسانية والترقيات النفسية، وبين محو النصوص العلمية العملية ورد الناس إلى الحالة الأولية. وهذا أمر

لن يقدر عليه مجموع الإنس والجن ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا: «يريدون أن يُطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره.»

فلنشرع الآن بعون الله تعالى في إثبات أن كل ما نقرأه من قواعد المدنية العصرية ليست بالنسبة إلى قواعد الديانة الإسلامية إلا كشعاع من شمس أو قطرة من بحر. وأسهل سبيل يُوصلنا إلى هذا الغرض: هو أن نتكلم على أسس المدنية الحالية، ثم تُثبِت أنها بعض أسس الديانة المحمدية بطريقة واضحة جلية؛ فنقول:

ما هو الدين؟

إن لفظة دين قديمة جدًا كقدم مسماها. وشائعة بين كل الطوائف البشرية، سواء حاضرها وباديها، وحشيها ومتمدنها. ولكنهم لم يدركوا معناها على الوجه الحقيقي الذي جاءت به الشرائع الإلهية والذي ينطبق على رحمة الخالق وعنايته. ومن يتدبر التاريخ؛ ير الشعوب المختلفة قد تطورت أطوارًا كثيرة في فهم معنى هذه الكلمة على حسب تطور العقل البشري في فهم المعقولات.

كان الأقدمون لا يعرفون الدين إلا أنه مع احتفالات عمومية تُضحَّى فيها الحيوانات، أو أسرى الحروب؛ إرضاءً لمعبوداتهم، وتسكينًا لغضبهم. ثم لما ترقَّت المدارك الإنسانية ونمت فيها الغريزة العقلية؛ بطرو العلوم والفنون أخذ معنى الدين ينجلي شيئًا فشيئًا، ويُقرِّب رويدًا رويدًا من المعنى المراد لله. والذي جاءت الأديان تأمر الناس بفهمه كذلك.

نحن هنا قبل أن نتكلم على ماهية الدين بالمعنى المراد للإسلام يجب علينا أولًا– أن نتكلم على ما يفهمه علماء أوروبا من هذه اللفظة. بعد أن فحصوا العلوم فحصًا. وأوسعوا الكون بحثًا عن نواميسه وتنقيرًا عن قوانينه؛ لنجعل هذا من بعض الأدلة الحسية على نظريتنا من أن كل خطوة يخطوها العالم في سبيل فهم الحقائق هي تقرب ظاهر إلى الإسلام فنقول: إن علماء أوروبا بعد أن دخلوا في كل دور يمكن أن يدخله الإنسان المعرَّض لكل أصناف الفتن العلمية (ومن يُطالع تاريخ العلم من أول سقراط للآن ير العجب) عادوا الآن حيث الهدو شامل وبدر العلوم كامل؛ فأعترفوا عن بينة بأن لهذا الكون خالقًا قادرًا حكيمًا متصفًا بكل صفات الكمال. ومنزَّها عن أقل ما يشعر بالنقص. وأنه جلَّ سلطانه وَضَعَ الكون على نظام مخصوص يستطيع من ينظر إليه برؤية أن يستنتج منه تلك الصفات العُليا استنتاجًا محسوسًا، وأن يتعلم منها أمورًا يغني الجري عليها مع قلتها وسهولة فهمها عن ألوف القواعد والتعاليم التي كانت تُلقى على الناسح فيحنون رؤسهم خضوعًا لها، ولكن على غير فهم لحكمتها ونتائجها. ثم رأوا بالاستقراء لنظام الكون ونواميسه أن الخالق جل شأنه يتعالى علوًا كبيرًا عن الاحتياج لكائن من صنع يده، بل هو غني بذاته عن كل ما عداه. ثم قالوا إن غناه هذا لم يمنعه عن الاهتمام بمخلوقاته اهتمامًا يدل على عظيم رحمته، وسعة رأفته. وأقل نظرة في الوجود تدل على صدق هذه النظرية دلالة حسية:

أنظر إلى أصناف النباتات والحيوانات من أدناها إلى أعلاها؛ ترى آثار هذه المرحمة الكبرى تتجلى للإنسان تجليًا يبعثه رغم أنفه إلى محبة ذلك الخالق

العظيم، فإنه جل سلطانه لم يترك كائنًا من الكائنات إلا ووهب له ما يقيم له أودّ حياته ويحفظ بقاءه. وما يدفع عنه البوائق والجوائح إلا ما يستلزمه نظام الكون ويكون في حصوله أثر مرحمة أسمى ورأفة أعلى بمجموع هذا الوجود. ثم إن إلهًا هذا شأنه لا يحمل الإنسان من العبادة إلا ما فيه حكمة بالغة وفائدة عظمى لذات الشخص وبني نوعه وسائر أجزاء الطبيعة؛ لأن مجرد التدبر في جميع أنواع الكائنات يدلنا دلالة واضحة على أن خالقها لم يخلقها وهو مُريد إفسادها وملاشاتها، بل خلقها وأراد إصلاحها وبقاءها. ومما يدل على ذلك: إيداعه فيها القابلية للترقِّي والتدرج لدرجة حددت في سابق علمه. ولما كان الإنسان لا يفترق في النسبة إلى الله عن سائر الكائنات الأخرى، بل يزيد عليها في كونه نهاية الإبداع وغاية الاختراع، فيكون بالأولى خاضعًا لناموس الرقي والتدرج، وقابلًا له أكثر من سواه.

هذا هو الواقع فإن من يتأمل في مبلغ الرقي الذي حصله الإنسان من أول نشأته إلى الآن؛ يتحقق أن الخالق جل جلاله وهبهُ من الخصائص ما يستمر به ترقيه، وتدرجه إلى نقطة لم يصل إليها الفكر البشري للآن. ثم قالوا: وبما أن أفعال الله مُجردة عن البحث والتناقض؛ فيجب أن تكون تلك العبادة المرغوبة لله تعالى موافقة للنواميس الثابتة السائدة في الكون كله، وملائمة للأميال والإحساسات المغروسة في جِبِلَّة النوع الإنساني. فاستنادًا على هذه البدائة العلمية التي لا يصح إلا متراء فيها بني طائفة عظيمة من علماء أوروبا ديانتهم الطبيعية. وإليك ما قاله في هذا الموضوع أحد نصرائها وهو الفيلسوف الشهير (جول سيمون) قال: «إنا نؤدي في

أثناء هذه الحياة الواجب الذي رسمه الله تعالى لنا تحت رعايته. وعندما ينتهي بقاؤنا فهو إما أن يُثيبُنا وإما أن يعاقبنا» ثم ذكر الأسباب التي تقتضي الإثابة والعقوبة فقال: «أما الأمر الذي يقتضي المثوبة الحسنة في طاعة الإنسان لقانونه الخاص وعمله للخير. أما قانون الإنسان الخاص: فهو حفظ ذاته وترقية خصائصه المودعة فيه. ثم هي محبة وخدمة إخوانه، ومحبة وعبادة خالق ذاته. ولكن ما هي الطريقة التي يعبد بها الإنسان ربه؟ إن أداء الواجب وعمل الخير: هو عين العبادة والحب والعمل. والإخلاص: هي نفس العبادة ونفس الصلاة، والإخلاص للوطن هو عين خدمة الله تعالى. هذه هي الديانة الطبيعية. وهذه هي العبادة الطبيعية. كل أصول مذهبنا هذا واضحة لا رموز فيها. أما أصوله: فهي الاعتقاد بوجود إله قادر على كل شيء ولا يُغيره شيء. خلق العوالم وحكمها بقوانين ونواميس عامة، ووجود حياة أخرى تؤدي لنا كل وعود هذه الحياة وتُكافئ المظالم بالجزاء الأوفى. هذا هو إعتقادنا. فأما صلاتنا: فهي أن يكون قلبنا مملوءً بمحبة الله تعالى ومحبة الإنسان، وأن تكون لنا إرادة ثابتة في أداء الواجب وخدمة إرادة الله تعالى بعمل الخير والبر» .

وهنا نستدرك فنقول أن أصحاب هذه الديانة لا يكرهون العبادة الجسمية مطلقًا، كما يُؤخذ ذلك من كلام (جول سيمون) في غير هذا الموضع، إلا أنهم فقط لا يحتفلون بعبادة جسمية لا يكون من نتيجتها فائدة أدبية تذكر. فهم يريدون أن تكون معتبرة وسائل لإحياء القلوب وتطهيرها من أدناسها، لا أغراضًا قائمة بنفسها مجردة عن كل غاية. قال

(كانت) الفيلسوف الطائر الصيت: «العبادة الخارجية لا تكون رديئة إلا إذا أعتبرت أغراضًا لا وسائل. وهي يمكن أن تكون نافعة مفيدة، إذا لم تُعتبر إلا وسيلة لإيقاظ وتقوية العواطف الفاضلة في النفس البشرية.»

أما نحن فنلخص من كل هذه الأقاويل أربعة أمور مهمة: هي مذهب علماء أوروبا في الدين وهي: أولًا– الاعتقاد بأن الله غني عنا وعن أعمالنا. وأن ما نعمله من الخير لا نتيجة له إلا منفعتنا الخاصة. ثانيًا– أن الله تعالى رحيم بالإنسان، ويود صلاحه، ولا يُكلفه بالعبادة إلا لفائدة نفسه. ثالثًا– أن العبادة يجب أن تنطبق على النواميس الثابتة للحياة، وتلائم الطبيعة البشرية لا أن تُعارضها وتسعى في ملاشاتها. أخيرًا– العبادة الجسمية يجب أن تُعتبر وسائل لتطهير النفوس وتهذيبها لا أغراضًا مطلوبة لذاتها.

نقول إن هذه الأربعة الأمور التي لم يبلغها العقل البشري إلا بعد أن شابت ناصية الكرة الأرضية، وجعلت علماء القرن التاسع عشر يتيهون بها عجبًا، ويميلون طربًا ليست هي إلا شعاعًا من الديانة الإسلامية وقطرة من بحرها الزاخر. ونحن لأجل زيادة الإقناع نأتي هنا على النصوص الشريفة التي تنطبق على هذه الأمور الأربعة مرتبة على حسبها فنقول:

أولًا– قال تعالى: «ومن جاهدوا فإنما يجاهد لنفسه. إن الله لغني عن العالمين».

ثانيًا– قال الله تعالى: «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر» وقال تعالى: «ما يريد الله ليجعل عليكم في الدين من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم ولعلكم تشكرون.»

ثالثًا– قال الله تعالى: «لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها» وقال تعالى: «ولو أنا كتبنا عليكم أن أقتلوا أنفسكم أو أخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم» وقال تعالى: «يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفًا» .

رابعا– قال عليه الصلاة والسلام: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدًا» وقال عليه الصلاة والسلام: «كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش».

هذه هي عقيدتنا في فهم الدين. وقد رأيت أنها مطابقة للعقل والعلم تمام الانطباق، ومتفقة مع النواميس الثابتة كمال الاتفاق. ولما كانت مطاعن علماء أوروبا على الأديان لم تتوجه إليها غالبًا إلا من هذه الوجهة الرئيسية التي يبنى عليها سائر قواعد الدين، فقد حق لنا أن ننادي بأعلى صوتنا أن الإسلام أعلى وأسمى من أن يناله سهم من سهام ذلك التنديد الشائن، وأكبر وأجل من أن يلحقه طعن الطاعن.

هذه الأربعة القواعد يعتبرها علماء الديانة الطبيعية أركانًا تُبنى عليها كل قاعدة قانونية يكون في العمل بها تقدم الإنسان إلى النقطة الكمالية التي أعد هذا النوع لبلوغها. ولمَّا كان العلم هو المنوط إجماعًا بتحسن تلك القواعد المرقية للإنسانية، فهم يعتبرون كل قاعدة يتوصل إليها من هذا القبيل كأنها قاعدة دينية في الجري على سنتها رضاء الخالق والقيام بطاعته.

أما المرويات القديمة الأساطير التي مضى عليها ألوف من السنين مع ما أستلزمتها من قواعد الدين فقد صدقوا عنها وهجروها هجرًا كليًا. قال

(كانت): «الديانة الحقيقية الوحيدة لا تحتوي إلا على قوانين: أعني قواعد قابلة للتطبيق نشعر من ذاتنا بضرورتها المطلقة، وتكون مجردة عن الأساطير والتعاليم الكهنوتية» كأن (كانت) يريد أن يُذكر المسلمين بقوله تعالى: «تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون».

الناموس الأعظم للمدنية

إن من يتدبر في تفاصيل تاريخ الأمم من يوم تكونها إلى الآن لا يرى فيها إلا أهوالًا تشيب الولدان وتُرعد فرائص الإنسان! يرى حروبًا دموية وفتنًا إجتماعية، ومصائب أسرية، ومفاسد أخلاقية! يرى الأطماع والشهوات البهيمية لابسة لباس النفاق والوحشية. تسفك الدماء، وتُيتم الأبناء، وتهدم كل بناء! يرى رجالًا رفعتهم الصدف الوقتية إلى مقاوم الشرف الوهمية جعلوا ممن دونهم عبيدًا يمتصون دماءهم ويبتزون ثراهم؛ لإطفاء جمرة شرههم وإشباع بطن نهمتهم! اللهم إلا بعض مستثنيات من السعادة كانت تُشرق في بعض الأمم ثم تختفي ليحل محلها الشقاء والكمد.

هكذا ترى تاريخ الإنسان كله مملوءً بالأحن والمحن مفعمًا بالكدر والحزن، مما يُكره إليك بني نوعك ويحبب إليك إتهام نفسك، ولكنك لو علوت قليلًا عن مثار هذه القلاقل والزلازل ونظرت إلى النوع البشري من وجهة أخرى؛ لرأيت بعينك أن هناك ناموسًا ثابتًا يبعث الإنسان من خلال هذه المضانك الاجتماعية والارتباكات العمومية إلى التقدم نحو الأمام رغمًا عما يساوره في جميع جهاته من هذه النوائب المصمية. ثم لو علوت عن مركزك هذا إلى أسمى منه لتحققت أن لك الارتباكات كلها: هي نواميس ثانوية تابعة لذلك الناموس الذي شاهدته أولًا. وإن تلك الإرتباكات والمضانك هي أفاعيلها وآثارها تنفعل في العالم؛ لكي يرتج في بعضه ارتجاجًا يفصل عنه خُبث الأخلاق البهيمية ودرن النزعات الوهمية. هذا أمر لا

مشاحة فيه خصوصًا في عصرنا الحاضر. ويمكنك أن تهتدي إليه بقليل من الاستقراء فإنك لو فحصت كل نازلة مهمة ألمت بالعالم في عصر من عصور التاريخ؛ لرأيت أنها جلبت معها فائدة عظمى لو وزنت مع المصيبة التي سبقتها لرجحت عليها رجحانًا يقلل من تأثرك من تلك المصيبة بل يرضيك عنها رغمًا.

نحن في هذا الكتاب الوجيز لا نستطيع أن ندرس وقائع النواميس الاجتماعية التي يتأثر أفاعيلها على النوع الإنساني، خرج من ظلم الجهالة والوحشية إلى باحة النور والمدنية. كلا، فهذه أمور تعوزنا لكثير من البحث والتدقيق يخرجنا عن نيتنا الأولى من جعل كتابنا هذا صغير الحجم شاملًا لأطراف موضوعنا. ولكن ذلك لا يمنعنا من أن نلم بسر هذا التدافع الإجتماعي إلمامًا يُسهل علينا بحثنا، ويُنير لنا المسائل الإجتماعية الكبرى بطريقة تُرينا الحقائق مجسمة أمام أعيننا؛ لتكون حجة التطبيق أكثر إقناعًا فنقول:

إن أول ضرورة شعر بها الإنسان بعد مقومات حياته الشخصية، هي ضرورة الإجتماع على طائفة من بني نوعه، فكنت تراه من جهة ذاته على تمام الحرية لا يُقيده شيء من الأشياء. ومن جهة أخرى ضعيفًا عاجزًا لدرجة تُلزمه أن يضحى بعضًا من هذه الحرية؛ في سبيل إقامة أود حياته؛ هربًا من فناء عاجل. لهذا أجمع علماء العمران على أن الإنسان مطبوع على الإجتماع رغم أنفه؛ لأنه من مقومات حياته التي لا يمكنه أن يستغني عنها، كما لا يمكنه أن يستغنى عن المأوى والملجأ.

بين هذه الحرية المطلقة التي يشعر بها الإنسان في نفسه، وبين احتياجه لأن ينضم إلى جمعية من بني نوعه قامت كل الفتن التي يُحدّثنا بها التاريخ. وترويها لنا السير كما بنُي عليها كل ما شاهدته وتشاهده من التفاعل في أجزاء النوع البشري؛ جريًا وراء الغاية المتمناة. وعلى هذا فحوادث التاريخ كله في الأمم جمعاء مبنية على تحديد قواعد الحرية المعتدلة التي تليق بمقام النوع الإنساني، وعلى تحديد السلطة التي تستلزمها حالة الاجتماع. ولم يزل النوع الإنساني للآن هدفًا للتدافع الهائل بين أجزائه طلبًا للاهتداء إلى الحد الفاصل بين هاتين القاعدتين. إلا أن هذين القرنين الأخيرين يمتازان عن سابقيهما بشدة القرب من ذلك الحد المعتدل؛ بفضل الدماء الغزيرة، التي سمح بها محبوا الحرية في أوروبا في القرن الفارط مما لم يسبق له مثيل في عصر من العصور السابقة. قال علماء العمران: وهذه الحرية التي نالتها الأمم الأوروبية في هذا القرن الأخير هي سبب كل الرقي الذي نرى آثاره الآن على ربوع أوروبا.

ما هي تلك الحرية التي جاهدت أوروبا لنيلها جهاد الأبطال، وبذلت لتحقيقها كل مرتخص وغال؟ هل هي بعيدة عنا بعد السماء من الأرض، أو بعد اجتهاد أوروبا من خمول الشرق؟ كلا، هي بين أيدينا ولكنَّا غافلون عنها، كغفلة الغني الأبله عما بين يديه من الكنوز التي لو صادفت مالكًا كفؤًا لساد بها على غيره. ولأطلق الألسنة بالثناء على خيره. نعم، هي بين أيدينا ولو شئنا لعملنا بها، وجرينا على سنتها، ونحن آمنون مطمئنون لا تتكلف في سبيل تأييدها بذل المهج ولا اقتحام الرهج، بل هي من

محفوظاتنا عن ظهر قلب، ولا نتكلف إلا فهمها على حقيقتها: ببذل قليل من التدبر. لو فعلنا ذلك؛ حصَّلنا الغرب في قليل من الزمن فلا يسعه وقت ذلك إلا أن يندهش من سرعة رُقيّنا، كما أندهشت دولتا الرومان والفرس من سرعة انقلاب حالة العرب من الوحشية إلى المدنية العليا في بضع وعشرين سنة.

ما هي تلك الحرية التي يقول عنها المسيو (د. فيو): «الحرية هي أفضل سعادات الدنيا» والتي يقول عنها (باشيا): «الحرية هي أصل كل الرقي الإنساني» والتي يترنم بحسنها (فيكتور هوجو) ويقول: «يمكن أن يقال أن الحرية هي الهواء الذي يجب أن تستنشقه النفس الإنسانية» هل هذه الحرية في الانفراط الكلي من كل قيد، والانخلاع المطلق من كل رابط. كلا، فتلك حرية الحيوانات التي لا تحسدهم عليها، بل الحرية التي يُتَوِّق إليها فلاسفة الأمم: هي الحرية المعتدلة التي تسمح للإنسان باستعمال جميع خصائصه، بدون أن يخشى مسيطرًا عليه إلا إذا تعدى حدوده المحددة له بوساطة الشريعة العادلة، وكان تعديه ذلك مضرًا ببعض أعضاء الجمعية التي هو فرد منها.

هذه هي الحرية التي يتلمسها عقلاء الأمم من يوم أن تسنموا هامة هذه الكرة الأرضية؛ وها هم لم يزالوا للآن في جهاده الأول. ولو كنت أشكاله تغيرت عما كان عليه أيام كانت القنا والقواضب: هي صاحبة القول الفصل والكلمة العليا. ونحن هنا قبل أن نتكلم عليها؛ لأجل أن نطبقها على قواعد الديانة الإسلامية، يجب علينا أن نتكلم قليلًا عن جهاد

النوع الإنساني وراءها، منذ بدء الخليقة؛ لنستطيع أن نقف على تفاصيل المسألة من أولها إلى آخرها. ولنستدل على القواعد الأساسية التي قامت عليها حرية الأمم المتمدينة.

جهاد الإنسان لنيل الحرية

الإنسان حر بطبعه ولا يحتاج إلى مرشد يرشده إلى الحرية؛ لأنها من العواطف الشديدة التأثير عليه.. اللهم إلا إذا توصل إلى تعكير وجدانه بالخزعبلات المُطفئة لنور البصيرة، كما حصل في كثير من الأمم ولكن لما كانت الحرية المطلقة: أي حرية الحيوانات، تُبطل عمل كثير من الخصائص المُودعة في الإنسان والتي لا تتم إلا باجتماع رضخ الإنسان لأن يُضحى قليلًا من تلك الحرية في سبيل ممارسته تلك الخصائص؛ من هنا نشأت السلطة مع ما أستلزمته من المقتضيات التي أخرجت تلك السلطة عن حدودها في كثير من الأحوال. ذلك أنه لما كان من ضمن أميال الإنسان المودعة في جِبِلَّته حب التسلط والعلو على سواه؛ وجدت بعض النفوس مُساغًا إلى تحقيق أمانيها من التسلط المطلق ومجازًا إلى متابعة هواها من التعالي الإفراطي على الغير، وتذرعت لذلك بكل الذرائع الممكنة.

ولما كانت وسائط التسلط لا تنجح إلا إذا واجهت الإنسان من أشد عواطفه تسلطًا عليه؛ وجد محبو القهر والجبروت أن أنجح تلك الطرق: هي التأثير على الإنسان من طريق الدين . وكان الجري على هذه الطريقة سببًا في تحريف أكثر الأديان وإخراجها عن نصوصها الأصلية طمعًا في امتلاك أزمة القلوب والسيطرة على العقول؛ فكانوا يتربصون لكل حركة يأخذها العقل؛ طلبًا للتخلص من أوهاقه القاتلة، فيبتكرون له من أنواع التخرصات الدينية ما يقف أمامه ولو حينًا من الزمان دهشًا مذعورًا،

حتى إذا صدر ما يراه أمامه وأخذ يتحرك يمنة أو يسره أتوا إليه في الحال بما يثبط من تلك الحركة أو يمنعها من الانتشار: وهكذا دام الحال قرونًا كثيرة جدا في خلالها كانت كلمة أولئك المسيطرين هي الكلمة العليا وأمرهم هو الأمر النافذ حتى طرأ على العالم من تأثير نواميس الرقي ما يفكهم نوعًا ما من ربقة ذلك الاستعباد المطلق لرجال الدين؛ فنشأت سلطتان: سلطة دينية وأخرى سياسية؛ فحصل بينهما من التدافع والتجالد ما لا تكفي المجلدات لتبين أهواله. حتى توصلت بعض الشعوب المرتقية في هذين القرنين إلى التخلص من نير السلطة الدينية.. كما أفتكت نفسها أيضًا من غلو السلطة السياسة ففرحت تلك الشعوب بما حصلته من الحرية، بعدما شابت ناصية الغبراء وسترت مشيبها بالدماء، فأحد علماؤها يؤلفون الأسفار الضخام؛ ترنمًا بتلك النعم الجزيلة، وطفقوا يشنون غارة شعواء على كل الأديان بما لا نستطيع أثباته هنا، وتغالوا فأنذروا سائرها بالزوال ولم يعلموا أن كل ما نالوه بعد التي واللتيا ليس هو إلا تقربًا إلى الإسلام الذي أشرق نوره على العالم يوم كانت أوروبا في ظلم الجهالة الحالكة.

جاء الإسلام في وقتٍ كانت فيه الدنيا بأسرها خاضعة لدولتين عظيمتين: هما دولة الفرس ودولة الرومان. أما الأولى– فكانت القلاقل الداخلية والخارجية آخدة في زعزعة بنيانها وتقويض جدرانها. وأما الأخرى– فكانت لم تزل على جانب عظيم من عظمتها الأولى. وكانت لم تبرح تزلزل الأمم بسطوتها وتدوخ البلاد بقوتها. وكان فيها شطر عظيم من مدنيتها السابقة: أي مدنيتها التي يقول عنها (لاروس) في دائرة معارفه ما

يأتي: «ماذا كانت نظامات الرومان على وجه الإجمال؟ كانت عين الوحشية والقسوة مرتبة في صور قوانين. أما من جهة فضائل روما مثل الشجاعة والمكر والبصر والنظام والإخلاص المطلق للجمعية فهي: بعينها فضائل قطاع الطرق واللصوص. أما وطنيتها فكانت مكتسبة لباس الوحشية فكان لا يرى فيها إلا شرهًا مفرطًا للمال وحقدًا على الأجنبي وضياعًا لإحساس الشفقة الإنسانية. أما العظمة في روما والفضيلة فيها فكانت عبارة عن: أعمال السوط والسيف في العالم والحكم على أسرى الحروب بالتعذيب أو بالأسر وعلى الأطفال والشيوخ بجر عربات النصر.»

نحن لم ننقل هذه المقولة في هذه المناسبة إلا لنرى القارئ مبلغ المدنية في ذلك الوقت عند أعظم أمم الأرض؛ ليتحقق أن كل ما سيراه من أساسات الإسلام الطاهرة ليس بالأمر المستعار من أية أمة من الأمم الأخرى، كما عسى أن يتوهمه بعض القاصرين. ولن نكتفي بهذا، بل ستثبت ذلك من أقوال أساطين علماء أوروبا أنفسهم.

قلنا إن الأمم المتمدينة نالت من الحرية في هذا العصر ما بنت عليه كل رقيها العقلي والخلقي مما حدا بأكثر علمائها أن يدعوا أن تلك الحرية منافية لنصوص الديانات كافة كما أسلفنا ذلك، وبنوا على فكرتهم هذه وجوب زوالها كلها في مستقبل قريب وحلول العلم محلها في قيادة الإنسان إلى سعادته. أما نحن فسنبرهن بالأدلة الحسية على أن الإسلام فضلًا عن كونه لا يعارض تلك الحرية التي رفعت الغرب من وهدته فإنه يحتوي على قسطٍ منها لا تقارن به حريات العالم على أنواعها إلا كما يقارن الخيال بالحقيقة.

إن حرية العالم المتمدن التي نشاهدها الآن على ما بها من عظم وجلالة لم تتأيد دعائمها ولم تثبت وطائدها إلا بواسطة ثلاث حريات بسيطة أخرى كانت بالنسبة لها كأعمدة ثلاثة بالنسبة لبناء فاخر. أما هذه الثلاث حريات الأولية فهي: أولًا- حرية النفس. ثانيًا- حرية العقل. ثالثًا- حرية العلم. ولنتكلم على كل منها بوجه الإجمال مع إثبات أنها بعض قواعد الإسلام فنقول:

حرية النفس

إن أكبر وسيلة تذرع بها مذللو النوع الإنساني للسيطرة والقهر هي حرمانهم النفوس البشرية من حقوقها الطبيعية وتجريدها من أهم خصائصها الفطرية. وجعل تلك الحقوق والخصائص تحت تصرفهم الخاص يوجهونها إلى حيث شاء هواهم ووافق كبرياءهم. فكانت كلمة (أعتقد وأنت أعمى) كما قال (لاروس): "هي القاعدة المتبعة والناموس السائد على كل فرد من أفراد الأمم، وكانوا إذا آنسوا من أحد من الناس بارقة التحرك إلى التفصي من وثاقه الثقيلة أسرعوا بالحكم عليه بالمروق من الجمعية القدسية وجعلوه طعمة للنيران، أو أذاقوه من العذاب ما يقشعر له جلد الحيوان".

أنتحلوا لأنفسهم حق الوصاية على النوع البشري وكلفوا أنفسهم تربية صغاره؛ فنقشوا في مخيلاتهم من التعاليم والقواعد ما يجعلهم إذا شبوا آلات صماء في أيديهم يستعملونها كيف شاؤا وفي أي غرض أرادوا. غرسوا في أذهانهم أن السعادة والشقاوة الأبديتين معقودتان بإرادتهم ومرتبطتان بمشيئتهم «ولو أتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض

ومن فيهن.»؛ فنشأ الناس طبقًا للقالب الذي صبهم فيه قادتهم وكانوا كلما تحركت ضمائرهم وتململت أنفسهم؛ ناداهم مما أنطبع في سرائرهم من تلك التعاليم مناد يقول لهم: «كلا إنه لا أنفس لكم ولا ضمائر. ما عليكم إلا أن تطيعوا طاعة عمياء!».

من هنا ماتت الحرية النفسية ومات ما يبني عليها من حرية المدارك المربية لأنواع الملكات؛ فلم يسع الطبيعة البشرية إلا أن أقامت الحجة عليها فتغلت النيات ودويت الصدور وتشعبث الهواجس في النفوس، وأفعوعمت الأفئدة بالأضغان والأجن ووقعت الجمعيات في حيص بيص. وكان الناس فيها كقطع الخشب في المرجل تغلي على تنور يصعدها وينزلها غليان الصدور واضطرابات الأمور؛ فنشأت الثورات الدموية بفظائعها التي لا تنطبق على إحساس، ولا تدخل تحت قياس حتى كان ما كان مما يعلمه كل إنسان لديه قليل من علم العمران.

في أثناء تلك الظلمة الحالكة، وقبل تلك القلاقل المزعجة كان خالق الإنسان موجهًا عنايته السامية إلى تربية الأمة العربية في وسط الشعاب والصخور على مقتضى قواعد الحكمة العظمى، التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها؛ ليجعل منها أمة تقيم الحجة على لسان الجبار الأعلى.. وتؤدب الطاغين بيد القهار الأقوى، حتى إذا ثابت الأمم إلى السكون بعد أن تنال من المدنية ما قدر لها في العلم المصون وتاقت إلى فهم ما يدعيه المسلمون من أن دينهم هو الكنز المكنون، والسر الذي قامت به السموات والأرضون؛ وجدوا أن كل ما وصلوا إليه بعد بذل

المهج وإقتحام الرهج ليس إلا صورة منعكسة من تلك التعاليم الإلهية! «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق.»

فهلم ننظر الآن فيما يقول الإسلام في حرية النفس؛ لنثبت لقادة الحكمة ونصراء النوع الإنساني أن كل النظريات التي يفتخر بها علماء هذا القرن، ما هي إلا صدى الصوت الذى رن بين شعاب مكة والمدينة قفل زهاء أربعة عشر قرنًا فنقول: جاء الإسلام واضعًا لأساس المساواة بقوله تعالى «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا.» وقوله عليه الصلاة والسلام. «إن الله قد أذهب بالإسلام نخوة الجاهلية وتفاخرهم بآبائهم؛ لأن الناس من آدم وآدم من تراب وأكرمهم عند الله أتقاهم.»

فأمحي بذلك كل فضل يمكن أن يدعي بأصالة المحتد، أو بوفرة الغنى، أو بالانتساب إلى قبيلة إلى غير ذلك من دواعي الامتياز وبواعث الانحياز، وجعل التمايز بالمزايا والأعمال لا بالفخفخة والأقوال فقال تعالى: «إن أكرمكم عند الله أتقاكم.» وقرر أن التقوى ليست من الأمور التي يمكن للإنسان أن يحكم عليها بمجرد النظر إلى أفعال الرجل في الطاعات ..وإجتهاده في أصناف العبادات، فربما ذهب ذلك كله هباءً منثورًا لعقيدة رسخت في فؤاد فاعلها لا يطَّلع عليها غير الله تعالى. قال عز وجل: «لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرًا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرًا منهن». وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينها وبينه إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب

فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى لا يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها.»

قرر الإسلام أن قبول الأعمال الصالحة هو من خصائص الله تعالى فليس للعبد أن يحكم على تقوي يراها في غيره بالقبول أو الرد بل يجب عليه أن يدع الحكم فيها للخالق جل شأنه حتى ولو بلغت تلك التقوى بصاحبها إلى درجة أعلته عن سائر أصناف الخلق. قال عليه الصلاة والسلام «دعوا المحدثين من أمتي (أي الذين تحدثهم الملائكة) لا تحكموا لهم بجنة ولا بنار حتى يكون الله هو الذي يقضي بينهم يوم القيامة.» وقال عليه الصلاة والسلام: «ويل للمتألين من أمتي الذين يقولون هذا اللجنة وهذا للنار.»

لم يعين الإسلام طائفة من المسلمين لأمر خاص بإمتيازات خاصة تعلو بهم أمام القانون الإلهي عن مرتبة أقل المسلمين مكانة وجاهًا، بل فتح للكل باب الفضل الرباني وقرر أن ذلك الباب مفتوح للكافة على السواء يلجه من أراد الولوج بدون إحتياج ولا عوز لمرشد غير كتاب الله وسنة رسوله. ولم يكتف بذلك بل حذر كافة متبعيه من الوقوع في أشراك من يدعون الأشقاء والإسعاد أو يتحلون لأنفسهم حقًا ليس لسائر الأفراد. قال عليه الصلاة والسلام: «من قال أنا عالم فهو جاهل.» وقال عليه الصلاة والسلام «أخوف ما أخاف على أمتي رجل يتأول القرآن يضعه في غير مواضعه ورجل يدعي أنه أحق بهذا الأمر من غيره.»

أكَّد الإسلام لمتبعيه أنه لن يُغني عن المرء يوم الحساب غير عمله.. ولن ينجيه من غائلة العذاب غير مكتسبات نفسه فلا يجديه الانتساب إلى عظيم أو الاعتزاء إلى أب كريم. قال الله تعالى: «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يري.» وقال جل شأنه: «فلا أنساب بينهم يومئذ ويتساءلون.» وقال خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم: «يا عباس ويا عمي النبي ويا فاطمة بنت محمد إني لست أغني عنكم من الله شيئًا. إن لي عملي ولكم عملكم.» لهذا وردت الأوامر الإلهية موجهة إلى سائر الأفراد السواء ومكلفة أصغر عضو من أعضاء الجمعية الإنسانية بما كلفت به أكبر كبير فيها. قال عليه الصلاة والسلام: «كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته.»

هذه القواعد رفعت نفوس المسلمين من ذلة الأسر لنفس بشرية أخرى، وسمت بها عن التقيد بإشارة غيرها لعلمها بأنها هي التي ستدان وحدها عما جنت وتسأل عما كسبت وأنه لن تغني عنها نفس مثلها مهما علت وسمت.

بمثل هذه الأساسات تأسس روابط المؤاخاة وتتأكد عُري المساواة، ولا يكون السواد الأعظم من الناس مقودين إلى طائفة قليلة منهم يسيرون كيف يشاؤون ويوجهوهم إلى حيث يريدون. نعم، بمثل هذه القوة تسود المساواة. أتدري ما نتائج المساواة؟ المساواة هي مبدأ أولي لمجموعة الحقوق والواجبات، وأعظم مؤيد للعدالة والحرية بين سائر الأفراد. المساواة هي الفاروق الأكبر بين العدالة الحقة والعدالة الوهمية التي تُنخر عظام الأمم وتمتص دم حياتها. قال نابليون: «المساواة هي ينبوع كل عدالة سواء كانت

بين الشعوب أو بين الأفراد» وقال الفيلسوف (كوندرسيه): «المساواة الطبيعية لبني الإنسان هي القاعدة الأولى لمعرفتهم بحقوقهم وهي أساس كل الأخلاق الحميدة».

ونحن لا نود أن نختم مقالنا هذا حتى نثبت أن المساواة التي تتمتع بها الشعوب المتمدينة الآن ليست بقديمة العهد بل هي نبت الثورات الدموية التي حصلت في أواخر القرن الماضي. قال الفيلسوف (فرنك): «إن المساواة المدنية التي تأسست منذ نصف قرن عند بعض أمم أوروبا آخذة في الانتشار عند الأمم الأخرى تدريجًا. ونحن أما يحق لنا أن نتلوا قوله تعالى: «الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.»

حرية العقل

إن أكبر خصائص الإنسان شأنًا وأعظمها أثرًا: هي قوته العقلية. قلنا إن الانسان لم يُخلق كما خُلق الحيوان مطبوعًا على عمل ما يُقيم أود حياته بل خلق مجردًا عن كل علم بما يستلزمه أمر بقائه. إلا أنه مُنح في مقابل تلك الجهالة القوة العقلية التي تكبر وتنمو بزيادة المعلومات؛ فتغني الإنسان عن كل سوق طبيعي وترفعه تدريجًا من الوحشية المظلمة إلى المدنية النيرة. ولكن منيت هذه الخصيصة الكبرى مثل سائر الخصائص العظيمة الأخرى لحكمة يعلمها الله تعالى بمن يسيطر عليها ويمنعها حينًا ما من تأدية وظيفتها على حسب قانونها المرسوم لها من القدم.

لم يتربص مذللو النوع الإنساني لمواهب الإنسان أكثر من تربصهم لهذه الموهبة الكبرى لعلمهم أنها السلاح الحاد، الذي لو جُرِّد من غمده لم

تقف أمامه جيوش الأوهام ولا ظلمات الأحلام فشددوا النكير عليها تشديدًا حرَّم الإنسانية من أعظم خصائصها، حتى صرحوا بأن استعماله في فهم ما يقولون يفضي إلى الإلحاد؛ فوقع الناس في ظلمة من الجهالة أفضت بهم إلى حالة من الوحشية يُحدثنا التاريخ بها: وهو خجل من نفسه ناقم على أمسه. كان هذا حال الأمم في الحين الذي كانت فيه أصول المدنية الحقة وحرية العقل يمليها الحكيم العليم على خاتم أنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم. فبينما كان المسيطرون على الأمم يُصيحون في وجوه رعاياهم قائلين: «أطفئوا نور العقل. أطمسوا عين البصيرة. فإن الدين ينافي العقل» كان رسول الحق يقول لمتبعيه وأصحابه: «الدين هو العقل ولا دين لمن لا عقل له» وبينما كان أولئك القادة الغالون يقولون لمقهوريهم: «تواصوا أيها الناس بترك العقل جانبًا فإنه يغضب ربكم عليكم ويجلب سخطه إليكم» كان صاحب المدنية الحقة صلي الله عليه وسلم يقول لأصحابه: «يا أيها الناس أعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل تعرفوا ما أمرتم به وما نهيتم عنه وأعلموا أنه ينجدكم عند ربكم» إلى آخر الحديث.

بهذه القواعد الإلهية نال العقل حريته وتخلص من وثاق كان يئن منه، ويتعثر في أصفاده وصار هو المرشد الحقيقي للإنسان: وهي الوظيفة التي خلقه لأجلها الملك الديان كما صار هو المميز الأكبر لأفراد النوع الإنساني في الأفضلية بعد أن كان المميز فيها العبادة الظاهرية والتقوى العضلية. قال عليه الصلاة والسلام: «لا يعجبنكم إسلام رجل حتى تنظروا ماذا عقده عقله».

ماذا تفيد الإنسان عبادته الظاهرية وأفعاله العضوية، بينما يكون هو بضعف عقله عرضة لكل أنواع الإفراط والتفريط، يضع الأمور في غير مواضعها، ويزن الأشياء بغير ميزانها فإن كلف بأداء وظيفة أساء إستعمالها وأخل أعمالها لظنه الظلم عدلًا والعدل ظلمًا؟ ألسنا نرى كثيرًا ممن يدعون الصلاح والتقوى صاروا جوائح أممهم وبوائق وطنهم بمحض ضعف عقولهم؟ أثنى قوم على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم حتى بالغوا فقال: كيف عقل الرجل؟ فقالوا: نخبرك عن اجتهاده في العبادة وأصناف الخير، وتسألنا عن عقله فقال: «إن الأحمق يصيب بجهله أكثر من فجور الفاجر. وإنما يرتفع العباد غدًا في الدرجات الزلفي من ربهم على قدر عقولهم».

هذا هو مقدار تشريف الديانة الإسلامية للقوة العقلية. ولكن أتدري ماذا كانت نتيجة تحرير هذه القوة الجليلة عند الشعوب المتمدينة بعد ما نالوها ببيع الأنفس رخيصة في سبيلها؟ كانت نتيجته تمتعهم بكل ما تراه من عظمة مدنيتهم وشدة صولتهم وقوة شوكتهم. كانت نتيجته إهتداءهم إلى طرق السعادة الدنيوية ومناهج الرفاهة المادية مما نراه ونسمع به عنهم. قال لاروس: «إذا بحثنا بدون حيف ولا وهم عن سبب الرقي الذي حصل في العالم المادي والفكري والخلقي من منذ طفولية الجمعيات البشرية إلى أيامنا هذه فلا نراه إلا تخلص العقل من الضغط عليه» ونحن لا نود أن نقفل باب هذا المبحث حتى نثبت للقارئ أن تحرير هذه القوة العقلية ليس ببعيد العهد عنا وأنه لم يحصل إلا بعد جهد جهيد وجلاد شديد. قال (لاروس): «من منذ زمن الإصلاح الديني لغاية الثورة الفرنسية أستمرت

المجالدات بحظوظ مختلفة بين محرري العقل وبين الضاغطين عليه من القدم. ولأجل الإعراض الكُلِّي عن أساطير الماضي، ورسم خطة جديدة للمستقبل أخذت الثورة الفرنسية في ترميم ما تهدم من أركان الجمعية وصار تعليم النشأة الجديدة من أهم اشتغالاتها» أما نحن فنقول: «الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله».

حرية العلم

نسبة العلم إلى القوة العقلية كنسبة الغذاء إلى الهيئة الجسمية. فكما أن الجسم ينمو ويزيد بتمثيله أنواع المواد الأرضية كذلك القوة العقلية تكبر وترتقي بتمثيل النظريات العلمية والمعلومات الخارجية. لهذه العِلَّة أخذ مذللو النوع الإنساني في التشنير على العمل والتنديد به وبمحبيه، وحكموا أنه الرجس الذي لا يصح أن يُحام حوله أو يقصد حوضه. قال لاروس في دائرة معارفه: «أما هم فيعتبرون أن العلم هو الشجرة الملعونة التي تقتل بأثمارها بني آدم» نعم إنهم تصدوا العلم تصديًا منع الناس عن ذكر أسمه والعروج على رسمه. وأخذوا يُحرفون فلسفة الأقدمين لتنطبق على أوهامهم وتتوافق مع أحلامهم حتى لم يبق منها إلا هيكل مشوه يفرق العقل من رؤيته ويأنف من روايته.

زعموا أن لديهم العلم الذي لا جهل معه والكنز الذي لا يفتقر من جمعه؛ فحكموا أن كل ما أتى من الخارج منه يكون خارجًا عن نطاق التحقيق ولا يقول به إلا زنديق؛ فيسرعون بالحكم عليه بأقصى ما يتصوره العقل من العقوبة الجسمية مما يُروع الجسور ويزع الصبور فأماتوا بهذه

الطريقة عددًا عظيمًا من الحكماء بتهمة أنهم يسعون في زيادة مواد العلم ومن يطالع تاريخ العلم ير العبر.

بهذه الوسائل الجبروتية سكنت عاطفة العلم ولم تفعل إلا أن أقامت الحجة بلسان النواميس الحيوية، وكانت تلك الحجة الناطقة: هي سيادة الجهالة والأضاليل ورواج أسواق الأوهام والأباطيل، حتى تغلبت الأميال البهيمية على العواطف الإنسانية وعدا الأقوياء على الضعفاء، ولم يبقَ في القوس منزع. فجاء دور الثورات الداخلية والمقاتلات الدموية طلبًا لتحرير العلم من ربقته الجهنمية، وكان ما كان مما يعلمه من ألم بتاريخ ذلك الزمان.

هكذا كان حال الأمم قاطبة بينما كانت الحقائق الإلهية تنزل من السموات العلي على سيد الملا صلى الله عليه وسلم، وتُملى عليه أصول المدنية الحقيقية، والعلم المطلق من قيود العبودية. جاءت الديانة الإسلامية فاكة أصفاد العلم، حالة أغلال المعارف، مقررة أنه من الظلم الشائن والإعتساف المهين تقييد العلم بقيد أو تحديده بحد فقال عليه الصلاة والسلام: «من قال أن للعلم غاية فقد بخسه حقه ووضعه في غير منزلته التي وضعه الله بها حيث يقول: وما أوتيتم من العلم إلا قليلًا».

صرح الإسلام عن لسان الحكيم العليم في قرآنه القويم، بأن فهم حكمة الخالق في كلامه المنزل على صفوة أنبيائه لا يتأتى إلا بإنارة الفكر بأنوار العلوم وتقويم النظر ببدائة المعقولات فقال تعالى: «وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون» ولم يكتف بهذا بل أنذر المتكاسلين عن طلب العلم بسوء المنقلب وبالطبع على قلوبهم، برين يؤديهم إلى سوء

العذاب فقال تعالى: «ولئن أتيتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون. كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون.»

بمثل هذه الآيات البينات فتح الإسلام للعقول أبواب العلوم الصادقة والمعارف الحقة وأراهم أن طلبها والسعي في إكتسابها: هو من أعظم ما يُعبد به الخالق جل شأنه فقال عليه الصلاة والسلام: «أفضل العبادة طلب العلم» وقال عليه الصلاة والسلام: «نظر الرجل في العلم ساعة خير له من عبادة ستين سنة».

لم يحصر الإسلام العلم في بلد من البلدان ولا عند طائفة من بني الإنسان، بل أمرنا باصطياد شوارده حيث كانت وأني وجدت فقال عليه الصلاة والسلام: «أطلب العلم ولو بالصين» . وقال عليه الصلاة والسلام: «الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها» فليس للمسلم أن يرفض حكمة ما بحجة كونها صدرت ممن هو مناف له اعتقادًا أو مغاير له وجدانًا، بل يكفيه باعثًا لأخذها كونها حكمة وكونها مما يرفع شأن الإنسان ويزيل من جهالته. قال عليه الصلاة والسلام: «خذ الحكمة ولا يضرك من أي وعاء خرجت.»

أتل آي القرآن الحكيم بتدبر وروية تر آيات صوادع تزع الإنسان عن الغفلة عن العلم وتردعه عن الإغضاء عن نواطق الحكم تر الجبار الأعلى ينادي عباده بلسان الرحمة قائلًا لهم: «أنظروا ماذا في السموات والأرض.» ويُبكت المقصرين في النظر ليعتبر أهل الفكر بقوله «وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون.» وينذر الذين

يعمون أعينهم عن تدبر بدائع الأكوان الباعثة لمزايا العرفان بقوله تعالى: «ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلًا. قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرًا. قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى».

هذا هو شأن حرية العلم في الإسلام. فهل وصل الأولون والآخرون إلى إعلاء شأنه وإكبار مقامه إلى أكثر مما رأيت في هذه الآيات التي تبعث الجماد فضلًا عن الإنسان؟ وهل هذه الحرية العلمية بعيدة العهدة عن أبناء هذا العصر؟ كلا. قال المسيو (برتلو) أحد نظار خارجية فرنسا السابقين وأكبر علمائها الكيماويين: أن العلم لم يتوصل إلى نيل حريته إلا من منذ مائتين وخمسين عامًا: «الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله».

الواجبات الشخصية والبيتية والإجتماعية

قد أتممنا الكلام بوجه الإيجاز على الثلاثة الأنواع من الحرية التي أنبنى عليها كل الرقي الذي حصل في العالم المتمدين، وأقمنا الأدلة الحسية على أن كل تلك القواعد الأساسية الممدينة ليست إلا شعاعًا من أنوار الديانة الاسلامية. ولكن هناك قواعد ثانوية اخرى هي نتائج تلك القواعد الرئيسية يجب علينا أن نتكلم عنها بوجه الإيجاز حتى نرى لكل من عنده مسكة من العقل تفسير قوله تعالى: «ما فرطنا في الكتاب من شيء.» فنقول والله المستعان:

الواجبات الشخصية

كل إنسان يشعر بأنه مكون من جوهرين متميزين عن بعضهما هما الجسم والروح. وإنهما متحدان مع بعضهما على تغاير طبيعتهما إتحادًا غريبًا بطريقة بها يتأثر أحدهما إذا تأثر الآخر ولو كان نوعا التأثيرين والمؤثرين متباينين جدًا. وبناء على هذه النظرية أهتدي النوع الإنساني إلى أن مناط السعادة المتمناة هي حفظ هذين الجوهرين من أن يعتريهما ما يخل بوظائفهما فصار الإعتناء بكليهما ضربة لازب.

قال لوك: «السعادة التي يمكن للإنسان أن يتمتع بها في هذه الدنيا تستلزم أمرين أثنين عقلًا صحيحًا وجسمًا سليمًا. هاتان النعمتان هما مستقر كل النعم الأخرى، ويمكن أن يقال إن من توفرتا عنده لم يبق في نفسه حاجة لغيرهما. ومن حرم من إحداهما فلا يتصور أن يكون أسعد ممن

يملكهما معًا مهما كان متمتعًا بمزايا أخرى؛ لأنهما السبب الأول للسعادة والشقاء. فالذي لا يكون مالكًا لعقل سليم لا يهتدي عمره لطريق السعادة البين. والذي لا يكون جسمه صحيحًا لا يستطيع أن يخطو في ذلك الطريق خطوات مهمة.»

إذا تقرر هذا نقول إن الإنسان متنازع بين نوعين من المطالب وهما مطالب روحية تستلزمها سعادته النفسية ومطالب مادية تستوجبها سعادته الجسمية. أما المطالب النفسية فهي مجموع قواعد لا يقصد بها إلا الحصول على صحة النفس البشرية، وجعلها صالحة لتأدية وظائفها التي خُلقت لها.. كما أن المطالب الجسمية: هي مجموعة قواعد لا يراد بها إلا صحة الجسمان، وتمكينه من تأدية وظيفته المطلوبة منه في الحياة الدنيا. نقول أن إدراك أن السعادة الإنسانية المتمناة هي إصلاح حالة النفس والجسم معًا، وحفظ النسبة بين مطالبهما صارت الآن من البدائة التي لا يمترى فيها عند علماء العالم أجمع وقد سبقهم الإسلام إلى تقريرها أيام، كان الناس يبحثون عن السعادة في سُكنى الجبال وبالزهادة الكلية، أو بالإفراط في الملاذ البدنية وإطراح كل مزية فكرية. ولنتكلم عن ذلك ببعض تفصيل فنقول: إن من يتدبر بعين البصيرة في أحوال الخلق؛ ير العجب العجاب في تباين فطرهم وتخالف استعدادهم فيرى هذا معتدلًا وذاك مفرطًا وذلك مفرطًا، وبين هؤلاء درجات لا يحصيها إلا خالقها وكلهم متباينون في الأعمال والاعتقادات متخالفون في الملكات، حتى لا يمكن التوفيق بين فؤادين كما لا يمكن الجمع بين ضدين. كل ذلك مع وحدتهم في النوعية واشتراكهم في الإنسانية. لماذا يا تُرى هذا التخالف الشديد بين أفراد

النوع الإنساني؟ أليس هذا دليلًا محسوسًا على أن هناك أمراضًا وأعراضًا قد تعتري النفوس البشرية؛ فتشوه من صورها المعنوية كالأمراض والأعراض التي تنتاب الأجسام فتشوه من صورها المادية؟ ثم إذا رأيت أن لاهيًا أقلع عن لهوه وغويًا؛ أرتدع عن غيّه بتأثير موعظة أو رهبة. أليس في هذا دليل واضح على أن أمراض النفوس قد تزايلها إذا صادفت علاجها الحقيقي؟ نعم، إن النفس تكون في مبدأ أمرها طفلة مستعدة للانصباب في كل قالب، فإن منحت مربيًا حكيمًا في أول نشأتها شبت على حسب تعاليمه نفسًا حكيمة زكية. وإن منيت بمرب مهمل أو تركت لرحمة المؤثرات الرديئة؛ نشأت نفسًا شريرة تورد صاحبها الموارد الشائنة وتوقفه المواقف المهينة. وعلى هذا فيكون حال النفس من حيثية قبولها للمرض والمعالجة، مثل: حال الجسم سواء بسواء ولو كانت الأمراض والمعالجة بالنسبة للنفس المعنوية مباينة لأمثالها بالنسبة للجسم المادي.

الآن سهل علينا التكلم على كيفية تربية النفوس وحفظها من الأمراض وطريقة جعلها صالحة لتأدية وظيفتها. فما هو السبيل إلى ذلك؟ لا سبيل إليه إلا بأربعة أمور:

أولًا– تطهيرها من أدناس الأوهام.

ثانيًا– تهذيبها بالمعلومات الصحيحة.

ثالثًا– تعويدها على مكارم السجايا.

رابعًا– تصحيح إعتقادها.

ونفصل الأمر فنقول:

تطهير النفس من الأوهام

قلنا في السابق أن المشابهة تامة بين قواعد حفظ صحة النفس وبين قواعد حفظ صحة الجثمان. والأن نقول أن أول أمر يجب أن يعتني به الإنسان لحفظ صحته الجسمية: هي تطهيره دائمًا من أوضار الأدناس التي لا تفتأ تعتريه في أثناء تأدية وظائفه الحيوية، وأنه لو أهمل ذلك التطهير أفضى به الأمر إلى طروء المرض على جسمه وإنهاكه تدريجًا لقواه حتى ينتهى أمره بالموت.

إذا تقرر هذا نقول إن الأوهام الفاسدة والأباطيل الكاذبة: هي بالنسبة إلى النفس، مثل: الأقذار بالنسبة إلى الجسم؛ فيجب الاهتمام بإزالتها بالوسائل الفعالة قبل أن تتراكم على النفس فتمرضها، وتجعلها غير صالحة لتأدية وظيفتها. فقد شُوهد أن خرافة واحدة قد تلم بالنفس فتمنعها من التمتع بمزايا كثيرة أخرى. وحرمانها من هذه المزايا؛ يؤدى إلى حرمانها من لوازمها؛ فتقع في أمراض يُعبر عنها، بمثل: الجبن والحقد والبغض وهي الأمراض التي يُضحى فلاسفة الأخلاق كل أوقاتهم للسعي في إزالتها، حتى إنك لتراهم يحذرونهم الكافة الوقوع في أشراك الخرافات، كما يحذرونهم من الابتعاد عن أنياب الأراقم ومخالب الضراغم؛ مبرهنين لهم أن كل الفساد الذي طرأ على العالم في القرون الخالية كان بسبب إحناء رؤوسهم لكل ما يُقال وإتباعهم كل ما يرسم أمامهم بدون برهان ولا دليل.

سبقهم الإسلام إلى تقرير هذه القواعد؛ فحذر متبعيه من الوقوع في أوهاق الأضاليل وأراهم أن أكثر ما يدعو الناس إليه يُزري بالعقل ويبعد

عن سبيل الحق، فقال تعالى: «وأن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون» وقرر أن الإنسان سيقف غدًا بين يدي الله فيسأل عما حمل نفسه اعتقاده من الأباطيل التي لم يقوها الدليل ولم يصحبها البرهان، فقال تعالى: ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولًا» ثم حُكي لنا الضالين وأرانا أن ضلالهم هذا نتيجة إتباعهم للظنون والأوهام وحكم عليهم بما هم أهله من سوء المنقلب، فقال تعالى: «وما يتبع أكثرهم إلا ظنًا إن الظن لا يغني من الحق شيئًا إن الله عليم بما يفعلون»

تهذيب النفس بالعلم

قلنا فيما سبق أنه يجب تطهير النفس من الأوهام، كما يجب تطهير الجسم من الأقذار. والآن نقول أن التطهير المادي كما يحتاج إلى مظهر خال من الجراثيم المرضية وآت من المنابع الصحية.. كذلك تحتاج النفس إلى مُطهر يُطهرها من أوهامها، ويخلصها من أقذار وساوسها، وهذا المطهر الخالي من المكاريب: هو العلم المُثبَّت بالتجربة المُستدل عليه بالمحسوسات. هذا أمر واضح لا يمترى فيه العقلاء وأول من سنَّه في العالم المتمدن هو(ديكارت): الفيلسوف الذي كان عائشًا في القرن السابع عشر.. ومن ذلك الحين جرى العمل بمذهبه في تمحيص المسائل العلمية إلى الآن.

سبق الإسلام كافة البشر إلى تقرير القواعد الحقة لضرورة تطهير النفس وتهذيبها بالعلم والحكمة. كما كان السابق إلى الحكم بلزومه للجنسين الذكور والإناث معًا فقال عليه الصلاة والسلام: «طلب العلم

فريضة على كل مسلم ومسلمة.» وقال عليه الصلاة والسلام: «أطلب العلم من المهد الى اللحد.»

هذا ولم يترك الإسلام بابًا تنساب منه الأباطيل إلى العلم إلا سده، ولم يسم الشيء علمًا إلا إذا قواه الدليل وقامت عليه الحجج الناطقة فقال تعالى: «إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون.»

صرَّح القرآن الكريم بأن كثيرًا من الخلق تحسن لهم أهواؤهم تُلبيس الحقائق لحاجة في أنفسهم. وحذر من السقوط في مخاتلهم، ووسمهم بأنهم المعتدون الذين يجب أن يلفظوا لفظ النواة ويعاملوا بما هم أهله من الأقصاء. فقال تعالى: «وإن كثيرًا من الناس ليُضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين» وقال تعالى: «ومن الناس من يُجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير» ثم حكى لنا حال الذين يتابعون أهواءهم ويتبعون أفكارهم فأنذرهم بسوء المصير وشر المنقلب.. وقرر بأن لن يغني عنهم قولهم أنهم مقلدون لسواهم فقال تعالى: «: «وإذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب. وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار.».

يُصيح الإسلام في الناس صيحة توقظ الراقد وتبعث الصاحي.. مبرهنًا لهم على أن الحاجة إلى العلم ليست قاصرة على الحياة الأخرى فقط، ولكنها تسرى على أحوال الحياة الدنيا أيضًا قائلًا لهم: إن صلاح الشؤون الدنيوية وقوام الأعمال الحيوية لا يتأتى إلا به. قال عليه الصلاة

والسلام: «من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ومن أرادهما معًا فعليه بالعلم.».

يرمي الإسلام المقصرين عن طلب العلم بأشد ما يُرمى به مقصراً في واجبه نائمًا عن مطلبه. وقال عليه الصلاة والسلام: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا عالمًا أومتعلمًا.» وقال عليه الصلاة والسلام: «إنه لا خيرى في العيش إلا لعالم ناطق أولسامع واع.».

يُنذرنا الإسلام بأنه سيأتي زمان بروح فيه سوق الإلحاد، ويرمي الإسلام بما ليس فيه وينشأ فيه من العلماء المنافقين من يدسون الأباطيل إلى الدين؛ ليهدموا صروح الإسلام ويقوضوا من أركانه بأنواع الحيل الجدلية التى تدق على غير الواقفين على حقيقة الإسلام فقال صلى الله عليه وسلم: «ستكون بعدي فتن يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا إلا من أحياه الله بالعلم.»..

الإسلام يُصرح لنا بأن الجهل والإسلام ضدان لا يتفقان. وإن التدرج في فهم القرآن مرتبط بازدياد العرفان. وإن الراضي بالجهالة يكون راضيًا باستمرار جهله بكلام ربه المقصود منه تربيته وتطهير نفسه، وفي هذا من الخسارة ما لا يُقدره الحاسون قال الله تعالى: «وتلك الأمال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون. وقال عليه الصلاة والسلام: «وهل ينفع القرآن إلا بالعلم.».

هذا هو مقدار تشريف الإسلام لمقام العلم والحث عليه .وقد رأيت أنه أشد تأثيرًا على النفس وأكثر تحريضًا لها من كل ما نسمعه من قادة المدنية ونصراء التنور: «ومن أحسن من الله حديثًا.».

تأديب النفس بمكارم الخصال

يعلم كل إنسان أن للنفس أميالًا تشعر بها وتنفعل لها ولا تستطيع الإنفكاك عنها كما يوجد للجسم احتياجات يجب إمتاعه بها لحفظ موازنته وعدم الإضرار بكيانه. فكما أن الجسم يشعر بالجوع والعطش والبرد والحر وغير ذلك من المؤثرات الداخلية والخارجية مما يجب الاهتمام بإعطائه حاجته منه أو وقايته من تأثيره. كذلك تشعر النفس بحاجتها إلى أشياء وهي وإن لم تكن جوعًا ولا ظلمًا ولا بردًا ولا حرًا إلا أنه لا فرق بينها وبين الجسم في الاحتياج إلى أخذ ما يقوم بحياتها منها.

نعم، للنفس أميال ومطالب وهي وإن كانت لا تُحصى في صورها ولا تحصر في أشكالها، إلا أنها دائرة على محور واحد ألا وهو: ميلها الفطري إلى نيل كمال تشعر به في صميم فؤادها ولا تستطيع التخلف عنه إلا أن تموت بحسرة.».

إهتم عقلاء العالم من القدم بتهذيب أخلاق النوع البشري. وهم في ذلك مذاهب يضيق الكلام عن إيرادها، ولسنا نكلف أنفسنا إقامة الدليل على عدم صلاحيتها إلا باستلفات النظر إلى أحوال الأمم العظيمة ذات الشهرة التاريخية. نعم، إن أقل نظرة في شؤونها واتجاه أميالها تدلنا دلالة صريحة على أن قادتها لم يقفوا على الناموس الأعظم في تربية الإحساسات وتهذيب الطباع: وهو ناموس الإعتدال. بل نرى أن منهم من جعل محاسن الأخلاق قاصرة على أمته وأباح ارتكاب الرذائل ضد سواها. ويرى هذا الأثر بغاية الوضوح في كثير من الأمم التي كان لها سلطان قوي على غيرها.

ولدينا على صدق هذه الدعوى أدلة لا يستطاع دحضها بوجه من الوجوه وهذا كما لا يخفى تفريط في حق الكمال لا يسكن به الفؤاد ولا يرتاح له الوجدان ويقطع الطريق على النفوس، فلا تستطيع أن تُتابع السير إلى غرضها الكمالي الذي فطرت مسوقة إلى تلمسه وتحسسه. ومنهم من أفرط في كبح جماح النفس وقرر لزوم قتل كثير من أميالها وإحساساتها لدرجة تضيق الذرائع عن تحملها إلا لوقت محدود.

هذا الإفراط كانت نتائجه لا تقل عن نتائج التفريط الذي سبق ذكره فلم يسر على أفراد أمة إلا وأخل نظامها، وقوض أركانها وجر إليها من الفتن الاجتماعية ما يطلب علمه من مطولات التواريخ. هذا الإفراط في ترويض النفوس يُصادف غالبًا في الأمم التي أساءت فهم دينها، ولم تقف عند الحد الذي قرر في شريعتها الأصلية. نعم، لا نشك أن من الأديان من جاء آمرًا بالزهادة المطلقة والخروج الكلي عن دائرة الأشياء الأرضية، ولكن غاب عن أهل هذه الأديان أن هذه الديانات لها زمن محدود، ويستحيل أن يعمل بها بعد مضيه. وإنها لم يقصد منها إلا إحداث حادث في الوجود يُراد منه إعداد النفوس لارتقاء درجة نهائية لا يمكن أن تتيسر إلا بعد أن يمهد لها الطريق بتهيئ الطبيعة الإنسانية لقولها. وهذه الدرجة الثانية التي ندعي أنها غاية مما يمكن الوصول إليه في تحديد الشهوات والنزعات في خط الاعتدال.

نعم، الاعتدال هو الناموس الأعظم الذي ينبئ عليه قوام كل شيء ويحفظ به كيان كل شيء. أتريد برهانًا على ذلك؟ أنظر إلى جميع الكائنات

السفلية والعلوية من أول الذرة المادية البسيطة إلى أكبر نجم في قبة الفلك ترها كلها ألسنة ناطقة بأن الاعتدال مساكها وملاكها وأن به كمالها وانتظامها. نعم، الاعتدال هو نظام كل شيء فلا تستطيع أن تعلل كمال شيء من الأشياء إلا به.. كما لا يمكنك أن تعزو الاختلال في شيء إلا لفقدانه. لم يبقَ ريب الآن عند علماء الأرض كافة في أن الاعتدال هو القاعدة التي يجب أن يُبنى عليها كل عمل وترد إلى حدودها كل حاجة سواء جسمية أو نفسية. ذكر "لاروس" أحوال طائفة من متعبدين زعموا أن نيل الدرجات الزلفى في الاخرة لا يتأتى لهم إلا بقتل جميع خصائصهم النفسية وحرمانها من كل ما تتوق إليه طبيعتهم بأنواع من الترويض تكل عن احتمالها طاقة البشر ونُسب إليهم من الفظائع والأمور الوحشية ما لا يصدر إلا ممن مسهم ضرب من الجنون الشديد، ثم قال: «هؤلاء المتعبدون الذين يريدون أن يميتوا تأثير الطبيعة عليهم صاروا في الحقيقة ضحايا شهواتهم التي تنهشهم. لأنهم بدلًا عن تنظيم حالة نزعاتهم بإعطائها مطالبها في حدودها المعتدلة أرادوا بجنونهم أن يستأصلوا شأفتها.».

كان هذا شأن سائر الأمم في الإفراط في شهوات النفوس وأميالها أو التفريط في كبح جماحها؛ حتى أسفرت سماء الحق نور الإسلام وانكشف عن محيا الفضيلة الحقة كل لثام فنزلت آي الله تعالى مُندِدة بالغالبين والمقصرين، منذرة إياهم بسوء المنقلب في الدنيا ويوم الدين مقررة أصول الاعتدال على قسطاس مستقيم مدعمة قواعد الفضيلة على نموذج حكيم.

نظرت إلى منازع الأنفس نظرة الحكيم الخبير فلم تقرر لزوم قتل واحدة منها بل عالجتها من حيث يعالج الطبيب المريض بإرشادها إلى ناموس الإعتدال. وأرتها أن الزيغ عنه إلى الإفراط أو التفريط يُفضي بالإنسان إلى ما لا تحمد مغبته ولا تسر عاقبته. علمتنا هذه الآي الكريمة أن الله تعالى لم يخلقنا من عالم العدم إلى باحة الوجود؛ ليعذبنا بأنواع العبادات الشاقة التي تُميت إحساسات الأنفس وتُخرجها عن دائرة الكمال الإنساني بل خلقنا ووهبنا كل ما نحس به من العواطف؛ لنبلغ به ما أعد لنا من الرقي النفسي بسيرنا على مقتضى الحكمة الصحيحة.. وأرتنا أن كل ما أمرنا به من أنواع العبادات الجسمية أو القلبية لا يقصد به إلا تلك النتيجة. قال تعالى: «ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون».

يُصرح لنا الإسلام بأن الغلو في الدين ليس من الأمور التي يُكلف الله تعالى بها عباده بل أنه يتنزه عن أن يحملهم فوق مقدور طاقتهم: «لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها.» بل كما يدلنا التاريخ عليه من آثار الغلو الذي أهلك الأمم وأبادهم هي من مخترعات أفكارهم. قال عليه الصلاة والسلام: «إياكم والغلو في الدين فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين.» تصدى الإسلام لمن يظن أن التهالك في العبادة وإضناء الجسم فيها مما يُبرهن للخالق جل شأنه على شدة الإخلاص فقرعهم على ظن أفضى بهم إلى وصف الله تعالى بغير صفاته الكمالية وأنذرهم بأن تهالكهم هذا فضلًا عن كونه ذاهبًا سدى، فإنه يجري عليهم من الخالق وغضبه. قال

عليه الصلاة والسلام: «من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الذنب مثل جبال عرفة.».

الإسلام دين السعادتين وناموس الحياتين. لم يُقرر في أصوله الانقطاع إلى التبتل: «من تبتل فليس منا.» ولا تجنب الحياة الاجتماعية والمسائل الحيوية بالهرب إلى رعان الجبال .والانقطاع عن سائر الأعمال. كلا، كل ذلك مما ينافي الإسلام ويستلزم غضب الملك العلام. رُوي أن رجلًا أتى الجبل ليتعبد فيه فجيء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: «لا تفعل أنت ولا أحد منكم، لصبر أحدكم ساعة في بعض مواطن الإسلام خير له من عبادة أحدكم وحده أربعين عامًا.» هذا شأن الإسلام في الاعتدال في الدين الذي هو مالك لأزمة النفوس وقائدها إلى نعيمها في الحياتين، ولا يختلف عن هذا شأنه مع أميال النفس ومطالبها. فقد قررنا ألا يأمر بقتل عاطفة ولا بأماتة نزعة.. بل يسعى في جعلها معتدلة قويمة بلا إفراط ولا تفريط. فالسخاء مثلًا: وهو ذلك الخلق المحمود لا يُعد فضيلة في الإسلام إلا إذا رُوعيَ الاعتدال فيه. وبدون ذلك يكون ذنبًا يُحاسب الإنسان عليه. قال الله تعالى: «وآت ذا القُربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرًا إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين، وكان الشيطان لربه كفورًا.» «ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملومًا محسورًا.».

ثما ما قولك في التواضع؟ التواضع: هو ذلك الخلق المحمود الذي يرفع صاحبه عفوًا إلى مقام الشرف والمجد. وهو من السجايا التي يحثنا

الإسلام على التخلق بها. قال عليه الصلاة والسلام: «لو كان المتواضع في قاع بئر لبعث الله إليه ريحًا ترفعه.» ولكن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتأخر عن تحذيرنا من الإفراط فيه لدرجة تقضي بنا إلى المهانة والصغار وترمينا إلى حضيض المذلة والابتذال وينبهنا إلى التفرقة بين مَنْ مِنَ الناس يُحسن لديه التواضع، ومن منهم بليق الترفع لديه حتى يكون الرجل بمثاله منبهًا، كما هو بمقاله واعظًا. قال عليه الصلاة والسلام: «ومن لا يوجب لك لا توجب له ولا كرامة * لا تصاحب من لا يرى لك من الفضل كمثل ما ترى له * إذا رأيت المتواضعين من أمتي فتواضعوا لهم وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم * الكبر على أهل الكبر صدقة.».

وهكذا ترى الإسلام مع تعليمنا بقدر مكارم الأخلاق وبتأثيرها على مراكزنا في الحياة الأخرى يرينا جادتها الحقيقية. وخطتها الحكيمة حتى لا يكون الإنسان حلوًا فيؤكل ولا مرًا؛ فيلفظ كما هو معنى حديث شريف: وهو الأمر الذي يُنافي شؤون الحياة الاجتماعية ويعطل من رقيها كثيرًا.

قل لي بأبيك ماذا يكون شأن الطغاة في أمة أفرطت في السجايا المحمودة وأخرجتها عن حدودها المعتدلة وإلى أي نقطة تصل شرة المعتدين إذا صادفوا عند كل جريمة عفوًا وبإزاء كل رذيلة سماحًا؟ أما تكون النتيجة تمادي الباغين في بغيهم. وإخلالهم بمسببات الأمن والطمأنينة؟ أما تكون النتيجة حرمانهم من التهذيب والأدب وهما الأمران اللذان لا يتمان إلا بالعقوبات الرادعة والأحكام الصادعة. قال عليه الصلاة والسلام: «إقامة حد من حدود الله في الأرض خير من أن تمطروا أربعين يومًا.».

للحياة الاجتماعية شئون يضيق كتابنا هذا عن درس بعضها درسًا سطحيًا. وهي تستلزم يقظة من كل عضو فيها وجلدًا على تحمل عواديها وفطنة على حل مشكلات دواعيها. بل هي الحرب العوان التي يصلاها الإنسان من يوم ميلاده إلى يوم نهاية حياته. حرب أعلنتها المطالب الجسمية والنفسية وشبتها الضرورات الحيوية. حرب لا مناص منها لمن أراد الكمال وتوسم العلاء في دار المآل. حرب أذنَ الله أن يشب لهيبها ويتأجج سعيرها؛ لتبعث النفوس إلى إظهار خفاياها وتحُضها على استعمال خصائصها وسجاياها؛ لكيلا يكون الإنسان تائهًا عن أسراره ضالًا عن عجائب أحواله: «ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون.».

ها هي العائلة: قل لي بأيك كيف يكون حال الأدب فيها إذا كان أبوها مفرطًا في مكارم الأخلاق إفراطًا يجعله يتجاوز عن كل سيئة تصدر من أطفاله. ويعفو عن كل ذنب يحصل منهم؟ أليس يؤول حالهم إلى التمادي في الغي ونشأتهم على عدم إحترام القوى الوازعة التي سيصادفونها أمامهم يوم يكونون رجالًا عليهم تكاليف الحياة؟ لا شك أن عائلة رزئت بأب مثل هذا يكون حالها الخلل شأنها الفشل ويكون ذلك الأب في نظر شريعة العدل مجرمًا يجب تنبيهه إلى خطة الإعتدال، إن صح هذا في العائلة فهو في الجمعية أصح وأصرح.

جاء الإسلام فأنقذ النفوس الإنسانية من شقاء التفريط في الأميال النفسية والإفراط فيها وخط للبشر خطة معتدلة تلائم سنة الوجود وتناسب قوانين الحياة. مما يسمح للنفس أن تنال حريتها الحقه فترتقي في

معارِج الكمال بانتظام وسلام: «وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا.».

تصحيح الاعتقاد

قد تكلمنا في فصولنا السابقة على لزوم تطهير النفس من أوضار أوهامها بالمطهر الملائم لها: وهو العلم الصحيح واستكنهنا لها سر صحتها: وهو قانون الاعتدال في إمتاعها بجميع أميالها، وبقى علينا الآن معرفة ماهية سعادتها واطمئنانها فنقول: إنا نرى أمام أعيننا بعضا من الناس قد رُزقوا صحة ممتعة وثروة جسيمة. وتهذبوا بأنواع العلوم والمعارف ولكنهم كثيرو الضجر، شديدو الحيرة لا يكادون يشعرون بالراحة ولا يلتذون بملذة.. كأن لهم في كل لذة ألمًا، وبإزاء كل فرح ترحًا. يَحسون بكآبة قد رانت على صدورهم فلا يعلمون سببها ولا يعرفون موجبها. كآبة لا تزايلهم إلا بزوال عقولهم عنهم بكأس من الرحيق فلذلك تراهم شديدي الكلف به كثيري التحرق لفقدانه؛ لأنه دواؤهم الوحيد.

ما سر هذا الأرق والضجر مع هذه الصحة الجسمية وتلك الثروة المالية، وهما الأمران اللذان عليهما (كما يُقال) مدار السعادة الإنسانية؟ ما هذه الحيرة الوجدانية والوحشة الضميرية مع تهذبهم بأنواع العلم وهو كما يزعمون الشافي للناس من نزعات الوسواس؟ أما يدلنا هذا الضجر السري على أن النفس تائقة لأمر ما أن غاب على الإنسان علمه فقد دله عليه أثره؟ وإن ذلك الأمر ليس هو صحة البدن ولا وفرة المال ولا كثرة البنين، ولا سكنى القصور ولا أكل الصنوف ولا سماع العيدان ولا مغازلة

الغيد، بل هو أمرٌ آخر لا تعد هذه الملاذ بالنسبة له إلا هباءً، ولا الأكوان بجانبه إلا فناء! ما هو هذا الأمر السامي الذي لو حصلت عليه النفس اطمأنت وسكنت، وهامت به وسكرت ورضيت به وقنعت؟ هو لا شك صحة المعتقد وإليك الدليل:

ليست النفس من طبيعة هذه الأجسام الصماء ولا من طينة هذه المادة العمياء، حتى تأنس إلى شيء من أشياء هذه الأرض الحقيرة، أو تهتم بملاذها مهما كانت كبيرة، بل هي من طبيعة نورانية محضة. فلا تأنس إلا لنور يُجلى عنها ظلمات الأشياء الأرضية الكثيفة؛ لتشرف على حضرة القدس المنيفة وتُطل على حظائرها الشريفة. النفس أجل من أن تقنع بالمشتهيات الجسمانية وأكبر من أن ترضى بملاذها المموهة الفانية. فمهما غالط الإنسان نفسه بجمع المال ورفاهة الحال ليرتاح سره ويسكن اضطرابه، فإن النفس لا تفتأ تقيم عليه الحجة بعد الحجة ليهتدي إلى وضح المحجة. فإن تبصر في أمره، واكتنه حقيقة سره وأنال نفسه بغيتها من إبلاغها نورها المرجو لها سكن فؤاده وآب إليه رشاده، ولو كان جسمه بين القنا والقنابل وحاله من الفقر في أخس المنازل. فما هو السبيل إلى إبلاغ هذه النفس الهائمة أمنيتها وإمتاعها بطلبتها من صحة العقيدة؟ السيل لذلك هو العقل: «الدين هو العقل ولا دين لمن لا عقل له.».

العقل في النوع الإنساني خصيصة من أجل خصائصه. ومنحة من أفضل منح الله عليه لو أستعمل فيما وضع له وأعتنى بصحته واعتداله. بالعقل يسير الإنسان غور هذا الوجود العظيم على ضخامة أجزائه وعظم

أبعاده ويستكنه سير النواميس السائدة عليه فيستدل بها على وجود الخالق عز وجل وعلى تنزه أفعاله عن العبث وصنائعه عن اللهو، كما يستدل به على علمه وتدبيره ورحمته وحكمته استدلالًا محسوسًا لا يقبل شبهة ولا يداخله ريبة. بالعقل يدرس الإنسان أحوال الجمعيات البشرية.. فيرى نواميس رقيها وهبوطها وأسباب رفعتها وضعتها.. ويتبصر في أحوال الأنبياء الذين أرسلهم الله إلى خلقه هادين مرشدين فيستدل بالتدقيق فيما جاؤا به وفي الآثار التي تركوها على معنى النبوة وضرورتها للبشر وحكمة الله تعالى في اختلاف المدارك والإحساسات وفي تباين الملل والديانات. بالعقل يميز الإنسان بين أحوال الماضي والحال فيفرق تبعًا لذلك بين الديانات الخاصة وبين الديانات العامة ويعثر بتعضيد العلم والبدائة على الديانة، التي يجب أن تكون خاتمة الأديان كلها وباقية بقاء النوع الإنساني.

قضت مراحم الله جل شانه أن يكون الأكوان في الطبيع على ترتيب محكم ينطق بلسان الصمت للمتبصر، ويظهر بلباس الوضوح للمتفكر ويُحبب إليه الانتقال منه إلى غيره دون أن يشعر بملل ولا سآمة ولا يؤوب من استبصاره بندامة. بدون هذا الاعتبار بالعقل لا يتأتى للنفس أن تصحح عقيدتها ولا يتسنَّى لها تبعًا لذلك أن تسكن من اضطرابها. هذا ولا تُنكر أنه قد مضى على النوع الإنساني زمن كان فيه العقل في دور الطفولية، وكان يكفيه في الإيمان أن يندهش لأمر خارق للطبيعة يعطل من سير نواميسها وقتًا ما. وكان الله سبحانه وتعالى يرأف بعباده فيرسل إليهم رسلًا يمتعهم بخصائص تعجز عن اكتناه سرها عقولهم، وتندهش لها ألبابهم

فيستدلون بهذه المعجزات على صدق الرسول وضرورة اتباعه، وأما الآن حيث بلغ العقل أشده والنوع الإنساني رشده فلا تجدي فيه معجزة ولا تنفع فيه غريبة؛ لأن الشكوك قد كثرت مع كثرة المواد العلمية، فإن حدث حادث من هذا القبيل رموا فاعله بالتدليس أولًا ثم إذا ظهر لهم براءته منه أخذوا يُعللون معجزاته بكل أنواع التعليلات. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن طائفة الإسبيريت الروحيين في أوروبا تعمل الآن من الأعمال المدهشة الخارقة لنواميس الطبيعة ما لو رآه الجهلاء لظنوا أنه من أكبر المعجزات. مع أن القوم لا يدعون النبوة ولا يزعمون الرسالة، نعم، لا ننكر أن أعمال هذه الطائفة ليست من نوع معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ولكنه بدون شك يقلل من أهميتها في نظر الذين يقفون مع ظواهر الأشياء.

ومما يدل على أن هذه القرون الأخيرة لا تروج فيها مسائل المعجزات تكذيب علماء أوروبا بكل المعجزات السابقة وهو وإن كان تهورًا منهم إلا أنهم مصيبون في قولهم إننا في زمان لا يجدى فيه للاعتقاد إلا النور العقلي والدليل العلمي. ومن أقرب الشواهد لذلك ما كتبه المسيو (هنري برنجيه) في مجلة المجلات الصادرة في ١٥ مارس سنة ١٨٩٨. قال ما معناه: «إن العلم والتاريخ قررا بطلان كل هذه المعجزات (معاذ الله) ولكنهما لم يستطيعا أن ينكرا الروح التي بعثت إليها. أما نحن الآن فلسنا بمحتاجين إلى معجزة ما فإن معجزتنا الوحيدة الخالدة هي هذا العالم العالي الذي لا نهاية له فإنه أصلح في إيقاظ إحساسنا الديني من كل المعجزات الماضية.» انتهى.

لهذه الأسباب جاءت الشريعة الإسلامية تدعو إلى السبيل الحق ببدائة العقل وقواعد العلم صارفة النظر عن المعجزات وإظهار المدهشات، لعل الله سبحانه وتعالى بأنه سيأتي زمان تؤثر فيه المقررات العلمية على القوة العقلية ما لا تؤثره عليها الخوارق للنواميس الطبيعية. نعم، جاء الإسلام يخاطب العقل ويحاسب الفكر ويناقش الفطنة فلا يدعو إلى الاعتقاد بوجود إله حكيم قادر إلا مع تنبيه العقول إلى الدليل الحسي على ذلك.. ولا ينفي عنه الشريك ولا يثبت اليوم الآخر إلا بتعضيد ذلك بالبرهان وتقويته بالحجة المحسوسة.

علم الله أن كثيرًا من ذوي الأهواء في الأمم الطامعين في الكبرياء والعظم قد يحسن لهم الطمع أن يدسوا في الدين أشياء يرغمون بها أنوف العامة ويقودونهم بها إلى حيث توعز إليهم شهواتهم؛ فقرر في دينه الأخير أن كل دعوة من هذا القبيل يجب أن يطلب الدليل العلمي عليها، فإنه هو وحده الفارق بين الحق والضلال والمثبط لعزائم أهل البطلان. قال تعالى: «فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلًا فويل لهم ما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون.» وقال تعالى: «قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين.».

أنحى الإسلام باللوم والتعذير على الذين ديدنهم تقليد آبائهم تقليدًا أعمى والجمود على ما ورثوه منهم من الاعتقادات الباطلة بدون روية ولا تحقيق فأنذرهم بسوء المنقلب وشر العذاب فقال تعالى: «وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون.».

قرر الإسلام بأن حجة الرجل يوم القيامة بأنه إنما قلَّد غيره وتابعه لا تنجيه من غائلة العقاب مادام له عقل يميز بين الخبيث والطيب وبين الضار والنافع. قال تعالى: «وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعًا فهل أنتم مغنون عنا نصيبًا من النار. قال الذين استكبروا إنا كل فيها أن الله قد حكم بين العباد.» وقال تعالى: «وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير.».

صرَّح لنا الإسلام بأبلغ عبارة بأن الحجة القوية وحدها هي عماد الدين ومساك الاعتقاد فمن فقدها فقد جنى على نفسه جناية عظيمة وأوقعها في مصيبة كبيرة لأنه يكون بفقدها قد فقد أعظم دعامة يستند عليها يوم الحساب الأكبر. قال الله تعالى: «ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون.».

هذه هي قواعد الاعتقاد في دين الإسلام وهي مطابقة تمام المطابقة لما أقر عليه جمهور فلاسفة أمم الأرض في هذه القرون الأخيرة من أن كل قاعدة لا يقررها البرهان يجب أن تسحب عليها ذيول النسيان. فقل لي كيف يمكن أن يتطرق الزيغ إلى عقيدة مسلم عالم بحقيقة الإسلام بعد أن يسمع نداء الحق في صميم وجدانه يزعه عن ورود الأباطيل ويردعه عن التعلق بالأضاليل قائلًا له: «ولا تقف ما ليس لك به علم. إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولًا.»؟ بل كيف يتأتى لمسلم متهذب أن يجاري الهوى ويتبع كل من ضل وغوى بعد أن ينتقش في جوانح فؤاده ما قاله الله تعالى في وصف أهل التغفل الذين يقبلون الضلال

ويحمدون عليه ويجعلون أنفسهم وقفًا على تصديق الخرافات وهو قوله تعالى: «ولقد ذأرنا لجهنم كثيرًا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون.» اللهم بصرنا بدينك وهو دين المدنية الحقة وهبنا من لدنك ثباتًا على إتباع نهجه القويم، ويرفع عن أفكارنا ما تكاثف علينا من صدأ الأوهام إنك سميع مجيب: «قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن إتبعى وسبحان الله وما أنا من المشركين.».

المطالب الجسمية

قد أتممنا الكلام على المطالب النفسية ولم يبق علينا إلا الكلام على المطالب الجسمية، وهو القسم الذي باتحاده بالقسم الأول والتئامه به يتم للإنسان الحصول على سعادتيه اللتين يسعي وراءهما من يوم خلق للآن فنقول: تنحصر السعادة المادية في أمرين هما حفظ الصحة، والاعتدال في التصرف بمقومات الجثمان. فلنتكلم على كل منها في فصل خاص:

حفظ الصحة

قدمنا في فصولنا السابقة أن صحة العقل: وهو المميز الأول للإنسان عن الحيوان تتعلق بصحة الجثمان تمام التعلق وأقل نظرة في أحوال الإنسان تقنعنا بصدق هذه النظرية: وقد أدرك فلاسفة العالم المتمدين هذا السر العظيم فتراهم يهتمون جدًا بأمر الصحة اهتمامًا لا مزيد عليه ويقررون كثيرًا من القواعد المقومة للبدن والمحافظة لقواه؛ ليمارسها الطفل مع القواعد المقوية للعقل والمنمية له في آنٍ واحد، وجعلوا أهميتها لا

تنقص عن أهمية تعليم أصول العلم في شيء. قرروا كل هذا بعد ما زعموا أن الأديان تسعى جهدها في ملاشاة الصحة ولا تُعد بالنعيم الأبدي إلا من لوى الكشح عن أمر جثمانه وتحكموا على هذا ما شاءوا مما لا نرى لزومًا لإثباته هنا، بل نقول سبق الإسلام كافة البشر إلى وضع القواعد الصحية الحقيقية المبنية على ارتباط صحة العقل بصحة الجسم وجعلها أساسًا من أسس الإيمان وحمل كافة متبعيه على الائتمار بها والالتفات إليها، كما أمرهم بالالتفات إلى غيرها من قواعده. ونصَّ بأنها من أكبر المنح التي يهبها الله للعبد ولا يفضلها في علو المرتبة إلا كلمة التوحيد. قال عليه الصلاة والسلام: «سلوا الله العفو والعافية فإن أحدكم لم يعط بعد اليقين خيرًا من العافية»..

ولم يكتف بهذا بل قرر من مبادئه الأولى كل ناموس عام لحفظ الصحة وتقويم الجسم مثل النظافة والرياضة الجسمية والعقلية فقال عليه الصلاة والسلام: «الطهور شطر الإيمان * أحب اللهو إلى الله إجراء الخيل والرمي * روحوا القلوب ساعة فساعة.».

أما الأمراض فإن الإسلام يعتبرها عذابًا من الله تعالى يبعثه على المريض جزاء على تعديه للنواميس المقررة وعصيانه للقواعد الصحية الثابتة. قال عليه الصلاة والسلام: «المرض سوط الله يؤدب به عباده.». فيجب على المسلم والحالة هذه إذا أصابه مرض –أي سوط عذاب الله تعالى– أن يسعى في الإنابة إلى سبيل الإعتدال في شؤنه الحيوية ولا يتأتى له هذا إلا بإستشارة طبيب حاذق عالم بأصول نواميس الصحة دارس

لقواعد الطب. قال عليه الصلاة والسلام: «تداووا يا عباد الله فإن الله لم ينزل داءً إلا أنزل له دواء.». قلنا طبيب دارس لقواعد الطب؛ لأن الإسلام يحذرنا من الوقوع في مخاتل الدجالين، وينذرهم بالمسئولية العظمى. قال عليه الصلاة والسلام: «من تطبب ولم يعلم منه طب فهو ضامن.» ثم إن عجزت الأطباء عن مداواة العلة بعد أن يبذل الإنسان وسعه في التعالج؛ فإن الإسلام يبشر الصابر على بلائه بأحسن الأجور في الدار الآخرة. هذا وديننا القويم يعتبر ضعف النية وقلة القوة من الأعراض التى تؤخر الرجل عن نيل الدرجات العلا في الآخرة؛ لأنها غالبًا تكون نتيجة الإفراط في أمور الحياة ومقدمات التكاسل عن أداء واجبات الدين؛ ولذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام: «المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف.».

الإسلام لا يبيح لأي مسلم أن يتهاون بأمر صحته لأي غرض كان حتى في عبادة ربه والإخبات له: روى عبد الله بن عمرو بن العاص قال: «قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عبد الله ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟ فقلت: بلى يارسول الله قال: فلا تفعل. صم وأفطر وقم ونم فإن لجسدك عليك حقًا وإن لعينك عليك حقًا وإن لزوجك عليك حقًا وإن لزورك عليك حقًا وإن بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها فإن ذلك صيام الدهر كله فشددت فشدد علي. قلت يا رسول الله إني أجد قوة. قال فصم صيام نبي الله داود عليه السلام ولا تزد. قلت وما كان صيام نبي الله داود عليه

السلام؟ قال نصف الدهر. وكان يقول بعد أن كبر يا ليتي قبلت رخصة النبي صلى الله عليه وسلم.

لا شك أن كل هذه القواعد تجعل المسلم شديد التحفظ على صحته كثير الغيرة عليها، وهذا الغرض الذي يسعى فلاسفة هذا القرن أن ينقشوه في أذهان العامة حتى يهتموا بالنظافة والصحة فتقل الأمراض وتخف آثار العدوى.

الاعتدال في مطالب الجثمان

يعلم كل إنسان أن للجسم مطالب كثيرة وكلها ضرورية للحياة على شريطة الإعتدال فيها. فالغذاء: وهو أول المقومات الجسمية قد ينقلب ضربة قاضية على الحياة إذا أستعمل بإفراط أو إذا لم تراعِ فيه القواعد الصحية كجمع المتعاكسات من المواد الغذائية، ولهذا فقد أجمل كل أطباء العالم على أن ملاك الصحة الإنسانية هو الاعتدال في الشهوات الجسمية. بهذه القاعدة الرئيسية جاء الدين الإسلامي فلم يحرم علينا شيئًا من الطيبات قط. بل أباح لنا الأكل والشرب من كل شيء صحي ولكن بشرط عدم الإسراف قال تعالى: «قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق» «كلوا واشربوا ولا تسرفوا.».

ليست الزهادة في الإسلام بالتأثُّم عن لذائذ المآكل ونضيج الفواكه وحرمان النفس من كل ما تشتهيه. كلا، فليست مقرراته مثل هذه الزهادة التي قد تنافي الحياة الاجتماعية وتهدم صروح المدنية. كلا، قال الله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا أن الله لا يحب المعتدين. وكلوا مما رزقكم الله حلالًا طيبًا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون.».

في هذه المناسبة نقول أن ديننا القويم كما لم يُحرم التمتع بلذيذ المآكل. كذلك لم يمنع التحلي بجميل الملابس. قال عليه الصلاة والسلام: «ما منع أحدكم أن وجد سعة من المال أن يتخذ ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوب مهنته» ولم يكتف ديننا الحنيف بهذا بل يرغبنا في التجمل والتزين إذا لم يقصد به ريبة بل قصد به إرضاء الخالق جل وعلا في إظهار نعمته والتحدث بكرامته. قال عليه الصلاة والسلام: «من كان له شعر فليكرمه.» أي يسرحه. وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله يحب كل جيد الريح جيد الثياب.» وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنظر إليه رث الهيئة قال ما مالك؟ قال من كل المال قد آتاني الله تعالى. قال: «إن الله تعالى يحب إذا أنعم على إمرئ نعمة أن ينظر إلى أثرها عليه.».

الواجبات العائلية

للعائلة في الجمعيات المتمدينة شأن خطير ومقام كبير، فإنها بالنسبة للجمعية الكبرى كالأفراد بالنسبة للعائلات الصغرى. فإذا صلحت الثانية؛ صلحت الأولى، والعكس بالعكس؛ ولذلك ترى فلاسفة الأمم خصوصًا في هذا القرن يوجهون أكبر هممهم إلى إصلاح شؤونها وتعليم العامة كيفية إقامة أودها بالطرق العلمية المثلى. أما كنه هذه السعادة العائلية فينحصر في أمرين رئيسيين وهما إصلاحها أدبيًا وماديًا. وهذان الأمران منوطان ولا شك برئيس العائلة ومطلوبان منه كأكبر واجب تقضي به شريعة المدنية الحقيقية. من هنا نلقي على عاتق أب العائلة واجبين يفرض عليه تأديتهما على حسب ما تحكم به سنة الحياة فنقول:

الواجب الأول: إصلاح حال الأسرة أدبيًا

أداء هذا الواجب من الرجل يستلزم أمرين رئيسين أحدهما اعتباره امرأته شريكة له في الشئون العائلية، وإعطاؤها حقها من التجلة والتكريم، ثانيهما– اعتبار نفسه قيمًا على أطفال سيكونون غدًا أرباب أسر مثله وأعضاء لجمعية لها مقام في الوجود تؤثر عليها تربية أفرادها إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، وإن هذه الجمعية قد ينشأ فيها فرد يرفع مجدها إلى عنان السماء، وقد ينشأ فيها آخر يدهورها إلى حضيض الذل والشقاء. وإن مناط كل ذلك: هو التربية في سن الطفولية على المبادئ القويمة أو السقيمة، وأن الأب أحد المسؤولين عن كل جريمة تصدر من أحد أفراد عائلته التي رباها في حالة ما إذا كانت تلك الجريمة صادرة عن سوء إدارته في التربية والتهذيب. بهذه الأمور جاءت شرعة المدنية الجديدة وعليها بنيت كل نظريات التربية العائلية.

نقول سبق الإسلام كافة العالمين إلى تقرير هذه المبادىء القويمة فقال من حيثية عدم إهانه النساء والحث على إكرامهن وإحترامهن بلسان النبي عليه الصلاة والسلام: «ما أكرم النساء إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم.» و«احملوا النساء على أهوائهن.» وفي قوله تعالى: «وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرًا.» دليل جلي على أن للمرأة شطرًا عظيمًا من تربية أطفالها وتهذيبهم.

وأما من جهة إنطباق الإسلام على ما جاء في الأمر الثاني، فيكفي فيها هذا الحديث الجامع: «كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته» بهذا

النص الصريح صار الأب مسؤولًا عن أعضاء عائلته فردًا فردًا ومفروضًا عليه تعويدهم على مكارم الخلال وشرائف الخصال؛ لكي لا يأخذ بجريرة الإهمال يوم يوجه إليه هذا المقال: «يا راعي السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم تؤو الضالة ولم تجبر الكسير اليوم أنتقم منك» حديث قدسي.

الواجب الثاني: إصلاح حال الأسرة ماديًا

إن ما تكلمنا عليه من ضرورة إصلاح حالة الاسرة أدبيًا يتعلق كل التعلق بإصلاحها ماديًا؛ وذلك لأن أول ضرورة يشعر بها الإنسان هي ضرورة حفظ جثمانه من التلاشي فإذا لم يسهل لديه الحصول على هذه الضرورة، كما يجب لم يجد من نفسه قط باعثًا على السعي وراء شيء أدبي مطلقًا. وفي الواقع ماذا يكون أمر عائلة لا تجد من الغذاء الصحي ما يقيم سلامة أجسامها ويحفظ على أفرادها قواهم العقلية والبدنية ولا من الممكن ما يقيهم عوادي الأمطار والإعصار ولا من الملبس ما يحفظهم من أعراض الجو المجتاحة؟ أليس يؤول أمر عائلة مثل هذه إلى أخس دركات التوحش فتحسن الضرورات لأفرادها كثيراً من الدنايا النفسية والخسائس المزرية مع علمك بأن الاحتياج أبو المفاسد الأخلاقية؟ ثم ماذا يفيد العائلة وجدانها غذاءً جيدًا ومسكنًا وملبسًا كافيين ولم يجد أبوها مالًا كافيًا؛ ليقضي به ما يجب عليه من إصلاح حالة عقول أفرادها بإرسالهم إلى المدارس، وإيجاد المربين لهم في كل ما تحتاج إليه الحياة المدنية؟ أليس يتضح من كل هذه الملاحظات الحقة أن العائلة تحتاج إلى من يصرف عليها بسخاء وأن قلة مال أبيها قد توقعها في أسوأ حالات الشقاء؟

نعم، وبهذه القواعد المدنية جاءت الشريعة الإسلامية السمحاء. قال عليه الصلاة والسلام: «ليس منا من وسع الله عليه ثم قتر على عياله» وقال عليه الصلاة والسلام «وما أنفقه الرجل في بيته وأهله وولده وخدمه فهو له صدقة» وليس بعد هذا ترغيب في الصرف على العائلة.

ومما يدلك على ما للأسرة من الشأن الخطير وما للصرف عليها من التأثير الكبير في نظر ديننا الحنيف ما قاله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الشريف «دينارًا أنفقته في سبل الله ودينارًا نفقته في رقبة ودينارًا تصدقت به على مسكين ودينارًا أنفقته على أهلك أعظمها أجرًا الذي أنفقته على أهلك».

نعم، إن الإسلام لا يأمرنا بالتقشف المعروف عند العامة من حرمان النفس من كل شيء، وجعل المعيشة على درجة من الشظف يعسر معها كل تهذيب خلقي ويحرض النفوس يومًا ما إلى كسر فيود الدين بالمرة، كما حصل ذلك في كثير من الأمم. بل إنا نرى الدين الإسلامى يأمرنا بالسعي في إصلاح حالة معيشتنا جاعلًا ذلك الإصلاح شطرًا منه، قال عليه الصلاة والسلام: «إن من فقه الرجل إستصلاح معيشته وليس من حب الدنيا طلب ما يصلحك».

ولكن كيف يتأتى للرجل إستصلاح معيشته إذا لم يكن ذا عمل يستغله أو مهنة يتكسب منها؟ لا شك يجب علينا أن نتكلم على مقام المال والعمل في الإسلام لنبطل حجة القائلين بأن الأديان تكره العمل للإنسان فنقول والله المستعان:

مقام العمل والجد في نظر الإسلام

إن أقل نظرة في حالة الجمعيات المختلفة التى تتنازع البقاء الآن على سطح هذه الكرة تدلنا دلالة محسوسة على أن أسبق هذه الأمم كلها في مضمار الفوز بحاجيات السلطة والعلاء: هي الأمة المركبة من أفراد ألفوا الكد والعمل وتركوا الجبن والكسل؛ وعلى هذا فيجب أن يحسب العمل من ضمن القواعد المهمة الممدينة لأفراد النوع البشري والحافظة للأمم حياتها واستقلالها. نعم، هكذا يعتبره علماء العمران الآن ولأجله ينددون على الأديان زاعمين أنها تحبب الكل للإنسان وتقذف به إلى حضيض الهوان.

نحن لا يهمنا في هذا الكتاب إلا تبرئ الإسلام من هذه التهمة الفاضحة وإثبات أنه من أقوى العوامل في الترغيب إلى الجد والعمل. وأن قواعده من أشد القواعد تنفيرًا عن الكسل.

أجل الإسلام يرشدنا إلى الجد في العمل الحياة الدنيا بقدر ما يرشدنا إلى الجد في العمل للحياة الأخرى. قال عليه الصلاة والسلام: (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا) وقال عليه الصلاة والسلام: (اصلحوا دنياكم واعملوا لآخرتكم كأنكم تموتون غدًا) في هذين الحديثين رد على الذين توهموا أن صلاح الدنيا أمر يغضب الخالق جل شأنه. ويستوجب سخطه عليهم فنبذوها نبذ النواة ومحضوا أنفسهم للتعبد والزهادة بإضناء الأجسام وأنضاء العقول ولم يعلموا أن الدنيا دار حرب وهيجاء. وأن القائم فيها يعلب القاعد ويستعبده فيحرمه كل حقوق الحياة وأن الطبيعة البشرية لا تلبث أن تقيم الحُجة على مهملي

أمرها فينقلب تعبدهم الموهوم فسقًا وتنكسهم إجرامًا. هذا دلنا عليه تاريخ الأقوام التي أفطرت في كراهة الأشياء الدنيوية وفرطت في حقوق ضروراتها الحيوية بسوء فهمها لنصوصها الدينية فلم تلبث أن لعبت بها أيدي الغوائل الطبيعية؛ فارتكست إلى أسوأ حالة في الفسوق لو اطلعت عليها لوليت منها فرارًا ولملئت منهم رعبًا.

أما الديانة الإسلامية وهي ديانة آخر أدوار الإنسانية فلم تقرر في مبادئها أمثال تلك العبادة التي كان يقصد بها معالجة نفوس تلك الأمم الصخرية. بل قررت أن كل عمل يكون مناسبًا لسنن الحياة وملائمًا للنواميس التي تُعلي شأن العائلة البشرية وترفع أميال النفس عن حضيض البهيمية. يجب أن يُعد عادة خالصة لله تعالى إذا قصد به وجهه الكريم لا إشباع نهمة الشيطان الرجيم.

ولما كان كسب المال لإقامة أود الفرد والعائلة والجمعية والنوع الإنساني بأسره هو من الأمور التي تساعدك على الوصول إلى الغاية التي حددها الله لهذا النوع قرر الإسلام أنه من أفضل ما عبد به الإنسان ربه. قال عليه الصلاة والسلام: «أفضل الأعمال الكسب الحلال» وقال عليه الصلاة والسلام: «من سعى على عياله من حله فهو كالمجاهد في سبيل الله. ومن طلب الدنيا حلالًا في عفاف كان في درجة الشهداء» ولا تحسب أن الإسلام يرغبنا فقط في الكسب والعمل بل يفرضهما علينا فرضًا ويؤاخذنا على تركهما مؤاخذتنا على إهمال أمر لازب. قال عليه الصلاة والسلام: «طلب الحلال فريضة على كل مسلم».

أما المال وما أدراك ما المال: فهو في نظر الإسلام من أكبر مقومات حياة الأمة ومن أعظم دعائم الارتقاء لها. قال عليه الصلاة والسلام: «سيأتي على أمتي زمان يحتاج الرجل فيه للدرهم والدينار يقيم به أمر دينه ودنياه» هذا وقد كان بيَّن أصحاب رسول الله من الاغنياء من يكفي ما لهم لتجريد حملة عسكرية كما حصل من عثمان رضي الله عنه. وهل بعد مدح النبي صلى الله عليه وسلم للمال الصالح في قوله: «نعم، المال الصالح للرجل الصالح» يقال إن دين الإسلام ينافي الأثراء خصوصًا في مثل هذا الزمان الذي أخبرنا عنه صلى الله عليه وسلم؟ نعم، نحن في زمان يجب علينا فيه أن نظهر أوامر ديننا القويمة في الجد والكسب حتى تنشط الأنفس من عقال خمولها.. وتنمحي تلك الظنون الفاسدة التي يهمس بها بعض من يتحلون لأنفسهم وظيفة التهذيب والتعليم. فإن العامة صارت الآن لا تسمع من إرشاد الدين إلا ما ينفرهم عن العمل. ويبعدهم عن التكسب ويحبب إليهم القنوع والتقشف: وهو إرشاد لم تراع فيه الحكمة النبوية من مداواة القلوب بأوفق علاجاتها.

أما والعلم لو كان النبي صلى الله عليه وسلم أمر الناس بكرامة المال وترك العمل ولو بقدر جزء من مائة مما يفعله اليوم بعض المعلمين؛ لما وجد في الصحابة من يملك شروى نقير؛ لأنهم رضوان الله عليهم كانوا أطوع الناس لسيد الأنام صلى الله عليه وسلم. ومع ذلك فإنا نرى الأمر بخلاف ذلك على خط مستقيم. وها هي أوامر الله تعالى في كتابه الكريم حاثة على الكسب. وها هي السنة الشريفة داعية إليه بأكثر مما نرى في كتب مدنية

هذا العصر. قال الله تعالى: «ولا تنس نصيك من الدنيا» * «فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله» وقال عليه الصلاة والسلام: «نعم المطية الدنيا فارتحلوها تبلغكم الآخرة» وقال عليه الصلاة والسلام: «وليس خيركم من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه بل خيركم من أخذ من هذه وهذه» وقال عليه الصلاة والسلام: «طلب الحلال جهاد».

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسًا مع أصحابه فظروا إلى شاب ذى جلد وقوة وقد بكر يسعى فقالوا ويح هذا لو كان شابه وجلده في سبيل الله. قال صلى الله عليه وسلم: «لا تقولوا هذا فإنه إن كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسألة ويغنيها عن الناس فهو في سبيل الله. وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف فيغنيهم ويكفيهم فهو في سبيل الله. وإن كان يسعى تكاثراً أو تفاخراً فهو في سبيل الشيطان» يظهر من هذا الحديث الشريف إن كسب المال تابع لنية الكاسب؛ فإن قصد به الغرض الحق كان مأجورًا. وإن قصد به دنايا الأميال وخسائس الأعمال كان موزورًا ولو كان وجه المكسب حلالًا. قال عليه الصلاة والسلام: «من طلب الدنيا حلالًا مكاثرًا مفاخرًا؛ لقى الله وهو عليه غضبان. ومن طلبها استعفافًا عن المسألة وصيانة لنفسه جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر».

هذا هو القول الفصل في هذا البحث بقى علينا هنا أن نتكلم قليلًا على ما يستشهد به بعض المثبطين بقول أن الرزق مقسوم وأن الكد قد لا يُغني فتيلًا. أما نحن فأول المعتقدين بذلك. ولكنا لا نجترئ على اكتناه ما

استأثر الله بعلمه ولا نحاول التنقيب عن عالم الغيب. فما يدريني إن كدي هذا قد يخفق لعلم الله السابق ومالي ولإثارة هذه الأفكار التي بسوء فهمى لها تصدني عن الشغل والاجتهاد وتلفتني عن منهج الرشاد؟ كلا، إن الشريعة الإسلامية جاءت بقوانين الحياة المشاهدة المحسوسة وفي تعاليمها ما يدل الإنسان على ذلك دلالة بينة.

قرر الإسلام أن الله سبحانه وتعالى يقسم رزقه بين عباده على حسب تفاوتهم في الجد فمن كان جده أكثر كان حظه أوفر، والعكس بالعكس. وهذه هي القاعدة التي تبعث الناس إلى التسابق في ميدان هذه الحياة باطمئنان على نيل مكافأة التعب. قال عليه الصلاة والسلام: «إن الله يعطي العبد على قدر همته وهمته».

يُصرح الإسلام بلسانٍ فصيح أن الإقدام والهمة في كل أمرهما ملاك النجاح ومساك الفوز، وأن الخمول والطأة هما سبب الحرمان وأصل الفاقة. قال عليه الصلاة والسلام: «التاجر الجسور مرزوق والتاجر الجبان محروم».

ينادي الإسلام متبعيه قائلًا إن للحياة قواعد ثابتة ونواميس معية فمن عارضها؛ عارض إرادة الله تعالى .ومن وفق أعماله على نهجها؛ نال بغيته وفاز بمطلبه. وأن الرزق والكسب خاضعان لهذه النواميس المُقررة فمن خالفها؛ حُرم ومن لائمها رزق. وإن من أهم نواميس الكسب التبكير للحاجة والجد فيها قال عليه الصلاة والسلام: «من جد وجد ولكل مجتهد نصيب. الصبحة تمنع الرزق» وقال عمر بن الخطاب وهو أحد من أحب الاقتداء بهم: «لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقى فقد علمتم أن السماء لا

تمطر ذهبًا ولا فضة» ومع كل هذا فأنَّا نستطيع أن نسكت كل معارض، ونقحم كل مجادل في السعي على الكسب والجد وراء الأمل بقوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله يعطى العبد على قدر همته ونهمته».

هذا والإسلام يُحبب إلى متبعيه الذين يعسر عليهم الكسب أن يهاجروا الى حيث تسهل لهم المعيشة وتلين الحياة هربًا من الفقر الذي يقول عنه سيد الأنام: «كاد الفقر أن يكون كفرًا» وتحاميًا من أن يكون الإنسان عالة على غيره. نعم، الإسلام يبعث ذويه إلى السعي في طلب قوام الحياة ولو باقتحام الأسفار ومواصلة التسيار وخوض العباب وتجشم الأوصاب قال عليه الصلاة والسلام: «سافروا تصحوا وتغنموا».

على هذه السنين البينة سار أصحاب سيد الأنام. قال الإمام أحمد: «وكان أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام يتجرون في البر والبحر ويعملون في نخيلهم» هذا ومن يتدبر تاريخ الصحابة والتابعين ير مثالًا لهمة وإقدام وعزم يحق للنوع الإنسان أن يفتخر به حقيقة وأن يتوق للوصول إلى بعضه. ماذا يرى؟ يرى شرذمة قليلة كانت منزوية بين الشعاب والهضاب وهي من الفقر والفاقة بمكان لا يساويها فيه غيرها من الأمم قامت تنفض عن رأسها تراب الخمول والضعة إتمارًا بأمثال ما قدمنا من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ولم تزل واضعة إياها نصب عينيها، حتى بلغت في مدة ثمانين سنة من الملك وسعة السلطان وامتداد دائرة النفوذ ما لم تبلغه دولة الرومان في مدة ثمانمائة عام. بلغت هذا الملك كله وأخضعته لسيطرتها بطريقة تقرب أن تكون طوعًا لا كُرهًا إذا قيست بما كان يستعمله الرومان

من ضروب القسوة والوحشية واضطهاد المذاهب الدينية. طالع تاريخ القرن الأول من الإسلام تر بعينيك من عجائب الهمم ما لا نستطيع أن نصفه هنا ولو بوجه عام مما لا تعد همم متمدني هذا العصر بجانبها إلا كسلًا وجبنًا.

إذا كان الأمر هكذا فأين ذهبت الآن تلك الشهامة القلبية والهمة الإسلامية ثم كيف حل محلها العجز والخور، حتى عن نيل ما كان شائعًا عند أطفال أسلافنا من مكارم الخلال وشرائف الخصال؟

لم يكف الأمة الإسلامية ما هي فيه من الإستكانة حتي قامت بلسان بعض مرشديها تنسب تلك الحالة إلى الإسلام زاعمة أن لها الأخرى ولغيرها الدنيا. إن للإسلام الدنيا والأخرى معًا: «وقيل اللذين إتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرًا للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين * ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»، هذا حديث رب الإسلام: «ومن أصدق من الله حديثًا».

لا يجن المسلمون على دينهم بأكثر مما فعلوا. ولينظروا إليه نظر عقل وروية ليروا أن أكثرهم الآن لا يتبعون إلا أهواءهم وأفكارهم ولا يمنعوا علماء المدنية من الالتفات إلى الإسلام بما يدسونه ظلمًا إليه. وليعلموا أنه سيأتي يوم في مستقبل قريب جدًا يُظهر الإسلام في العالم برونق يشبه ما كان عليه في زمن سيد الأنام صلى الله عليه وسلم: «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق» «إنه كان وعده مفعولًا».

الواجبات الإجتماعية

لا يخلو أي إنسان خصوصًا في العصور المتمدينة من أن يكون:

أولًا: عضوًا في جمعية تحكم بقانونها ومشاطرًا لأعضائها الآخرين في المعتقد واللغة والمقتضيات الإجتماعية

ثانيًا: يكون مرتبطًا بعلائق الوطنية والمحكومية مع قوم ينافونه في المعتقدات والعادات. ثالثًا: تكون جمعيته التي يكون هو عضواً منها مسالمة لاتحاد المصالح لجمعيات أخرى تنافيها في سائر الحيثيات أو في أكثرها.

رابعًا: تكون جمعيته معادية لجمعية أخرى، لاختلاف المسائل الحيوية بينهما. فالثلاث أحوال المتقدمة لا تخلوا منها أبدًا جمعية من الجمعيات الكيرة الحية وقد ينضاف إليها الحال الأخير حينًا من الأحيان أو أحيانًا كثيرة على حسب أهميتها في الوجود فإنا نرى بأعيننا أن أكثر الأمم مدنية وأهمية تجبرها دواعي الاستعمار إلى مواصلة الحروب كل آن حرصًا على مصالحها ولو مع قبائل صغيرة...

مجرد النظر إلى هذا التقسيم يوجب الإعتراف بأنه تقسيم طبيعي لا مناص منه؛ لأنه لسان حال كل أمة متمدينة وغير متمدينة معاصرة لنا أو بعيدة العهد عنا. نقول الآن أن كل شريعة عادلة يجب أن تضع لكل من هذه الأقسام الأربعة واجات تنيط رعاياها بملاحظتها أمام كل قسم منها. بشرط أن تكون تلك الواجبات منطبقة على العدالة الحقة وموافقة لسنن

هذا الوجود. وهذا أمر لم يتوصل إلى إتمامه وتفيذه على حسب نواميس العدل الحق إلى هذه الساعة إلا الدين الإسلامي وإليك التفصيل والبرهان:

الإسلام يقسم العالم في نظره في أربعة أقسام كما قدمنا ويحدد بالنسبة لكل قسم منها واجبات خاصة ويفرض على المسلمين مراعاتها وملاحظها فالناس أمامه تنقسم:

أولًا: إلى مسلمين.

ثانيًا: إلى ذميين وهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين يكونون في ذمة الإسلام ومحكومين بقوانينه.

ثالثًا: إلى معاهدين أو مسالمين لحكومة الإسلام.

رابعًا: إلى محاربين له. فلنتكلم الآن على الواجبات المفروض على المسلمين مراعاتها بالنسبة لكل قسم من هذه الأربعة الأقسام فنقول:

١-واجبات المسلمين فيما بينهم

يجب على المسلم بالنسبة لسائر المسلمين أن يلاحظ نحوهم كلما تستلزم الأخوة الحقة مثل الحية والمساواة في سائر الحقوق الطبيعية والسياسية. نعم، يجب على المسلم أن يعتبر سائر أعضاء الجمعية إخوانًا له بصرف النظر عن اختلاف شؤونهم وتباين أصولهم وألوانهم. وألا يكون مناط التمايز بيهم إلا المزايا الشخصية والمكتسبات الذاتية مع جعل هذه الميزة موكولًا الحكم فيها إلى جانب الخالق جل شأنه وعدم غنائها عن صاحبها أمام القانون العادل.

أما التحاب بين المسلمين فهو شرط أولي من شرائط الإيمان لقوله عليه الصلاة والسلام: «لن تدخلوا الجة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا» ونُريد هنا أن ننبه أن هذه المبحة يجب أن تكون صادقة خالية من شوائب الرياء والدهان وإلا صارت نفاقًا إن لم يكشف سره اليوم ففي الغد. ولهذا يجب السعي في تطهير تلك المحبة وجعلها خالصة كما يسعى لتطهير الإيمان من شوائب المكفرات حتى يتم له الحصول عليها، ولن يتم له ذلك إلا بالتبصر في مبلغ علاقاته مع بني ملته وفي نتائج ركونه إليهم أو ابتعاده عندهم وفي عواقب الإخلاص لهم أو مداراتهم بشرط أن يكون عالمًا بحقيقة الحياة وتكاليفها ليرى رأي العين أن حياته مرتبطة بحياتهم وموته بموتهم: إذا تم له الحصول على هذا التبصر كما يجب يجد نفسه مسوقًا رغم أنفه الى إخلاص الحب لبني ملته كما يكون مسوقًا للالتجاء إلى حصن شامخ؛ هربًا من سيل جارف.

هذه التحة التي يدعو إليها الإسلام هي مناط كل سعادة إجتماعية وملاك كل مدنية حقية. أدرس أحوال الأمم المتمدينة وتأمل جيداً في دقائق أجزائها تر إن أكثر الأمم تماسكًا بين آحادها وتلاصقًا بين أفرادها: هي أسبقهم إلى مضمار السعادة الحيوية. وأولهم كلمة في الأحوال العمومية وتر مثل هذه الأمة لا تعثر حتى تقوم ولا تهمد حتى تنشط فبينما تراها مرتبكة في أمورها الخارجية ومهددة في منابعها الحيوية مما يقرب إليك الجزم بقرب سقوطها ووشك انحلاها لا تلبث أن تراها قامت تنفض عن رأسها غبار الارتباك وصاحت من يناوئها من كل جانب؛ فبددتهم بغير سلاح

ورفعت في سر هربهم الأقداح. هذا من أسرار التماسك الذي هو نتيجة المحبة وليس ما نراه في الأمم اليوم إلا جزءًا يسيرًا مما كان بين آبائنا الأول؛ فرفعهم إلى أوج لم ينله للآن غيرهم وأوصلهم إلى مجد لم يتق إليه سواهم. تم لهم ذلك بعد التقاطع والتنابذ بفضل الديانة الإسلامية والعمل بأوامرها السماوية. ولو أردنا أن ننقل هنا ما ورد في ضرورة التحاب بين المسلمين للزمنا صفحات كثيرة جدًا فنكتفي بإيراد حديث شريف يدلنا علي نقصان إسلام الذين يدعونه زورًا حالة كونهم لا يهتمون إلا بأنفسهم وملاذهم صارفين النظر عن كل ما يعود بالنفع على إخوانهم وهو: «ومن أصبح لا يهتم بالمسلمين فليس منهم».

ولنورد هنا بعض حقائق تاريخية تدل على مبلغ المحبة الأخوية التي كانت موجودة بين أفراد الجمعية الإسلامية الأولى؛ ليتعظ بها أبناء هذا العصر؛ وليعلموا أنهم بلغوا منها درجة لا تحصل بين أخوين شقيقين في هذا الزمان، قال حذيفة العدوي: «انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي ومعي شيء من ماء وأنا أقول إن كان به رمق سقيته ومسحت به وجهه فإذا أنا به فقلت أسقيك فأشار إليّ أن نعم، فإذا رجل يقول آه فأشار ابن عمي إلى أن أنطلق به إليه قال فجئته فإذا هو هشام بن العاص. فقلت أسقيك فسمع به آخر، وقال: آه، فأشار هشام أنطلق به إليه فإذا هو قد مات فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات، أنظر الى هذه الأرواح الطاهرة التي يحز بعضها على بعض حتى في ساعة لا تستطيع الوالدة فيها أن تفتكر في فلذة كبدها. أنظر إلى هذه

النفوس الزكية التي تؤثر غيرها عليها في ساحة هولها عظيم وألمها جسيم: ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة. ثم تأمل فيما تستلزمه هذه المحبة من الأوصاف التي يفتخر بها هذا الإنسان ويدعي إستنادًا عليها أنه أرفع من الحيوان. هل بعد هذا التماسك العجيب بين أفراد آبائنا الأول نستغرب سرعة امتلاكهم لأزمة هذه المعمورة مع قلة عددهم وعددهم؟ هذه المحبة الحقة كانت شأن كل فرد من الأفراد سواء كان أميرًا أو حقيرًا أو غنيًا أو فقيرًا. وما كان يصد ذا المقام السامي ما هو فيه من الرئاسة عن أداء واجبها بدون إخلال بوظيفته. اجتمع مرة قراء البصرة إلى ابن عباس وهو عامل عليها في (أي وإليها) فقالوا: لنا جار صوام قوام يتمنى كل واحد منا أن يكون مثله وقد زوج ابنته من ابن أخيه: وهو فقير وليس عنده ما يجهزها به فقام عبد الله بن عباس فأخذ بأيديهم وأدخلهم داره وفتح صندوقًا وأخرج منه ست بدر فقال أحملوها فحملوا فقال ابن عباس: «ما أنصفناه أعطيناه ما يشغله عن قيامه وصيامه ارجعوا بنا لكي نعينه على تجهيزها فليس للدنيا من القدر ما يشغل مؤمنًا عن عبادة ربه وما بنا من الكبر مالًا تخدم أولياء الله تعالى. ففعل وفعلوا.».

بسريان هذه المحبة الصحيحة في الأمة الإسلامية الأولى تأيدت دعائم المساواة والحرية والعدالة فيها تأييدًا لا يبلغ شأوه ولا يتحصل بغير الإسلام على جزء منه مما سنتكلم عليه تفصيلًا في فرصة أخرى.

هذا وقد ناط الدين الإسلامي بكل فرد من أفراد المسلمين واجب السعي في أعلاء كلمة الأمة وتأييد مركزها. وقرر أن أعظم عبادة يحبها الله

تعالى: هي السعي وراء تحقيق السعادة العامة. قال عليه الصلاة والسلام من حديث: «إن صبر أحدكم ساعة في بعض مواطن الإسلام خير له من أن يعبد الله وحده أربعين عام» وقال عليه الصلاة والسلام: «صلاح ذات البين خير من عامة الصلاة والصوم.» وقال عليه الصلاة والسلام: «عدل يوم خير من عبادة ستين سنة * من قضى حاجة لأخيه فكأنما خدم الله عمره * من مشى في حاجة أخيه ساعة من ليل أو نهار قضاها أو لم يقضها كان خيراً له من إعتكاف شهرين * من علم علمًا فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار.».

لا شك أن من يتأمل فيما سردناه هنا من الأحاديث الشريفة يرَ بعينيه أن مقصد الله جل وعلا من سن الأديان ليس: هو التهالك في العبادة الجسمية أو التفاني في الزهادة المضنية، بل قصده تهذيب الجمعيات البشرية وترقيتها إلى أوج مدنيتها بسيادة النواميس الممدينة على أفرادها. ألا ترى إنه يقول أن سماع كلمة حكمة خير من اعتكاف شهرين وأن إصلاح ذات البين خير من عامة الصلاة والصيام؟

اللهم ارزق المسلمين تبصرًا في دينهم وهمة لمحو الخزعبلات من أذهانهم، حتى يستطيعوا أن يروا الإسلام بالعين التي يجب أن يرى بها فإن من يفهم ما نقلناه هنا من الأخبار النبوية؛ يتحقق أن المسلمين الآن بتقاطعهم وتنابذهم وجهلهم قد نبذوا دينهم ظهريًا واستوجبوا سخط الخالق بإتباعهم لأهوائهم. نعم، أن هذه الأحاديث تدلنا على أن التقاطع والتباغض ينافي الإسلام بالمرة بل هو مروق منه فإن الله سبحانه وتعالى لم

ينزل هذا الدين للأفراد بل أنزله لعمرم الجمعية. فإن أكثر أوامره لا يمكن العمل بها إلا بالالتئام والوئام لا بالتقاطع والانفصام. قال عليه الصلاة والسلام: «الإسلام إلى الجماعة أحوج من الجماعة إلى الإسلام.».

إستطراد إلى الرق في الإسلام

نحن لا نحب أن نختم هذا الفصل قبل أن نري القارىء اللبيب أحكام الديانة الإسلامية بالنسبة للأرقاء؛ فإن في ذكر هذه المسألة فوائد جليلة جدًا؛ تجعلنا نُدرك الفرق الهائل بين العدالة الإلهية والعدالة البشرية، فنقول: كلما رأيته من حقوق المسلم على المسلم ينطق تمامًا على الإرقاء فهم بحكم الشرع إخوان مواليهم الحديث الشريف: «إخوانكم حولكم جعلهم الله تحت أيديكم.» إلخ. وبُناء على هذا فليس لأعظم عظيم حق في التفاخر على عبد زنجي مسلم مهما كانت صفته.

وما يجمل الإستشهاد به في هذا الموضوع أن أبا ذر الغفارى رضي الله عنه كان يناقش عبدًا بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم فغضب منه وقال له: يا ابن السوداء فما أتم هذه الكلمة حتى التفت إليه النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: «طف الصاع طف الصاع ليس لإن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بعمل صالح.» فوضع أبو ذر عند ذلك خده على التراب وقال للزنجي: «قم فطأ على خدي» وكان عبد الرحمن بن عوف إذا مشى لا يفترق عن عبيده لتشابه ألبستهم وتشاكل أزيائهم وعدم تقدمه عليهم: ورويّ أن الإمام عليًا رضي الله تعالى عنه ذهب مرة إلى السوق مع رقيقه فاشترى ثوبين أحدهما أكثر ثمنًا من الآخر؛ فأعطى خادمه الأثمن

وأخذ لنفسه الآخر فقال له الرقيق: «وأنت يا مولاي أحق بهذا الثوب» فقال له أمير المؤمنين: «كلا إنك أولى به مني لأنك شاب وأما أنا فقد هرمت»، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «إن أبا بكر سيدنا وأعتق سيدنا» (يعنى بلالا الزنجي). فأنظر بأبيك كيف ساد حب المساواة في أفكار الصحابة وهم ملوك العرب في الجاهلية حتى صار مثل عمر لا ينظر إلى بلال الزنجي إلا من حيث خصائصه لا من حيث لونه ولا أصالته! ولما احتضر عمر ولم يرد تعيين خلف له سمع يقول: «لو كان سالم مولى أبي حذيفة (أي رقيقه سابقًا) حيًا ما جعلتها (أي الخلافة) شورى».

فهل سمعت أيها القارئ في تاريخ البشر أن حب المساواة والأخاء والحرية ساد في أمة من أمم الأرض إلى هذه الدرجة؟ إن هذه المساواة لم يحلم بها فيلسوف للآن حتى في آخر القرن التاسع عشر ولا يتصور أحد من متشرعي هذا القرن إن من الممكن حدوث هذه المساواة ولا بين أكثر الأمم مدنية وعدلًا. فمن يلومني الآن إذا قلت بأرفع صوت أن هذه المساواة هي آخر ما يمكن حدوثه بين البشر. وأن كل خطوة تخطوها الأمم المرتقية في سبيل تعميم هذا المبدأ العظيم ليس هو إلا تقربًا من هذا الأس الإسلامي؟ ومن يكذبني إذا قلت أن هذه المساواة الحقة لم تسطر للآن إلا في الكتب الإسلامية: اللهم أهد المسلمين للتمتع بجمال دينهم وألهمهم ذكرى مؤثل مجدهم.

هنا يُحتمل أن يسألنا سائل فيقول إذا كان الإسلام كما ذكرت قرر المساواة بين الأرقام والأحرار إلى هذه الدرجة. وأطهر لهم من الشفقة

والرحمة ما لم يحصل مثله في تاريخ البشر بأسره، حتى قرر قتل الحر بالعبد وعدم قتل العبد بالحر. فلماذا لم يقرر أبطال الورق ومحوه؟ فهل كان أبطال الرق أشد صعوبة من أبطال عبادة الأوثان؟ فنجيب إن الإسلام دين عام لم يأت إلا لأجل أن يتبع ويسار بحسب تعاليمه. ولا يصح ذلك إلا إذا كانت أوامره ونواهيه ملائمة للطبيعة البشرية التي فُطر الناس عليها، ومناسبة للبواعث والأميال الإنسانية التي لا مفر من التأثر بتأثيراتها ومشاكلة للنواميس السائدة على الجمعية الآدمية رغم أنفها وعلى غير علم من أفرادها؛ ليرتقي النوع الإنساني تدريجًا من حالة البهيمية التي كان فيها إلى ذروة المدنية التي سيلاقيها. هذه النواميس أحس بوجودها فلاسفة العمران مثل (أوجست كنت) و(هجل) و(سبنسر) وغيرهم؛ لأنهم رأوا النوع الإنساني مُتبعًا سلسلة في الترقيات منتظمة الحلقات لا يمكن تخلفه عنها بوجه من الوجوه رغمًا عن الفتن التي تعتريه والثورات والمظالم التي تنشب فيه. بل قالوا إن كل هذه العقبات التي تظهر للنظر البسيط عوائق وحوائل ما هي إلا في فواعل تسوق إلى الأمام، وتُخرج الإنسان من الخلط إلى النظام. فكل حكمة يقولها الفلاسفة مهما ظهرت للسامع المجرد سامية عالية فلا تتصور أنه يمكن العمل بها في طبقات الأمم إلا إذا لوحظ معها سير نواميس التدرج البشري وتطوره. وهيهات أن يصل الحكماء إلى سير تلك النواميس بالدقة مهما كانوا مطلعين أو مقبين. إن من يمعن نظره في تطورات الإنسان وتدرجه في الترقي الفكري والمادي يرَ بطريقة محسوسة أن كل تطور دخل فيه شعب من الشعوب لم يحصل إلا في الوقت الذي صار فيه الجسم العام للهيئة الاجتماعية متهيئًا ومستعدًا للدخول فيه. إن

نواميس الحرية والمساواة لم تُشرق على أفق بعض ممالك أوروبا إئتمارًا بقول فيلسوف أو إجابة لنصيحة حكيم. كلا، بل تقدم ذلك مناسبات ومقتضيات هيأت جسم الهيئة الاجتماعية إلى قبول شكل آخر غير الشكل الذي كانت به. وهذا بحث لو أطلقا له عنان القلم لأدانا إلى تطويل ليس هنا موضعه.

بناء على هذه القواعد الأساسية الثابتة جاءت الديانة الإسلامية مراعية لسير تلك النواميس الطبيعية السائدة على الإنسان مراعاة تدهش المتبصر وتحير المتدبر. فبينما نرى القوانين والقواعد الوضعية الى رقت المجتمعات حينًا من الأزمنة السابقة صارت الآن مما لاينطبق أصلًا على الأحوال الراهنة نرى بعكس ذلك القواعد الإسلامية حافظة لشبيبتها لم يعترها هرم ولم يعتورها سقم. نراها لم تزل ولن تزال كما كانت تنطبق على كل جمعية وتلائم كل إستعداد وقابلية؛ ذلك لأنها هي نفسها تلك النواميس المرقية التي ظل يتحسسها علماء العمران من أول نشأة الإنسان للآن.

نحن لا نقدم كل هذه المقدمة لنبرهن للعالم أن الرق قاعدة من قواعد الإسلام يجب أن يوجد للآن. ولكنا نريد أن نعلل عدم إبطال الإسلام له في أول نشأته بالبرهان الحسي والدليل المشاهد. ولا نرى لأجل هذا دليلًا أقوى من نقل قول العلامة لاروس في دائرة معارفه. قال: «إن الحروب أفادت النوع البشري كثيرًا حتى أن أسوأ نتيجة من نتائجها: وهي الاسترقاق لما تخل من فائدة كبرى ومزية عظمى. ولا يستغربن القارئ هذا الأمر فإن ترقى النوع البشري قد يأتي أحيانًا من طرق لا يظن مجيئه منها:

فبالاسترقاق تحررت المرأة من ذل الأسر الذي كانت فيه عند بعلها. فإنها كانت عنده ألا تفترق عن العجماوات والبهائم. ولما جاء الرقيق رفع عن كاهلها كثيرًا من المصاعب التي كانت منوطة بأدائها وأسماها نوعًا ما في عين الرجل لأن دخول الغريب إلى العائلة يقضي على أفرادها باحترام بعضهم بعضًا أمامه. كل هذه المزايا أثرت على المرأة تأثيرًا حسنًا أهلها لأن ترتقي سلمًا من التهذيب وبترقي المرأة تحسن شأن النوع البشري، وارتقي تبعًا لها إلى معارج الفلاح. أما الآن فلم يبقَ وجه للاسترقاق، فإن الأعمال قد خفت وطأتها عن عواهن البشر وجاءت الآلات الميكانيكية فأراحت الإنسان كثيرًا عما كان عليه في الأزمة السابقة.» انتهى باختصار.

نقول ولو كانت الديانة الإسلامية أبطلت الاسترقاق من منذ ثلاثة عشر قرنًا، لكانت خالفت سنة الوجود وجاءت بأمر يؤخر متبعيها عن الرقي والمدنية ولكن حاشاها من معارضة نواميس الحضارة. فإنها أقرته بعد أن حصرته في دائرة محيطها الحكمة والعدالة.. وأسبغت على الآسر والمأسور نعمًا لا يمكن تفضيل أحدهما على الآخر فيها فلم تبحه إلا في الحروب الشرعية ضد الأمم الوحشة غير المسلمة بما كانت الأمم الأخرى متبعة في الاسترقاق طرقًا بربرية يأنفها الإنسان ويستقبحها الحيوان. ثم لم يكف الإسلام حصره في هذه الدائرة المحكمة بل جعل للأرقاء حقوقًا ما كان يحلم بها أحرار الأمم الأخرى في أكثر الممالك حضرة وتهذيبًا. ولو كانت الأمم البربرية تعلم مقدار عناية المسلمين بأرقائهم وشفقتهم عليهم ومساواتهم إياهم لأنفسهم لقدموا فلذات أكبادهم عبيدًا لهم ولرجوهم

قبولهم كما يرجو الأب الشفوق ناظر مدرسة حكيمة ليقبل ابنه في سلك تلامذته لكي يراه يومًا ما آدميًا كاملًا. وفي الواقع بينما كان آباء أرقاء المسلمين وإخوانهم هائمين في الفيافي والقفار كان هؤلاء في الجمعية الإسلامية موضوع الاحترام والتجلة وشاغلين لأسمى المراكز الاجتماعية في الإدارة والحربية مثل بلال وسالم وسلمان وغيرهم. أما وحق المواساة والحرية لو علم ملوك السودان ن عمر بن الخطاب الذي كانت تهتز عروش الملوك عند ذكر اسمه قال لجلسائه أن أبا بكر سيدنا وأعنق سيدنا (يعني بلالا) لنزلوا عن عروشهم وقدموا أنفسهم أرقاء لهذه الجمعية التي تجعل عبيدها سدتها نظراً لمزاياهم الشخصية وخصائهم الذاتية.

قلنا كل هذا ولكن هل الإسلام أقر الاسترقاق على وجه الاطراد ولم يشر بطرف خفي؛ حتى يفهمه اللبيب أنه سيكون يومًا ما شرًا لا خيرًا كما هو شأنه الآن؟ نعم، أشار إلى ذلك بإشارة صريحة يفهمها كل إنسان ولا سبيل لتأويلها فقال عليه لصلاة والسلام: «شر المال في آخر الزمان المماليك.»

أنظر ببصيرتك إلى هذه المعجزات العلمية وروض فكرك في الديانة الإسلامية وكذب ولو بقلك الطغام الذين ألصقوا بها المشائن الوهمية والمعابر الخرافة، فقالوا بأنها تعتبر الرقيق حيوانًا وتحث على النخاسة وتندب إليها ومفتريات أخرى تليت في الجامع وتشبع كل سامع، ولكن لا بد للحقيقة أن تظهر وللباطل أن يدحر وللإسلام أن يُعرف ويشهر «ولتعلمن نبأه بعد حين.»

٢- واجبات المسلمين بالنسبة للذميين (أي لأهل الكتاب الذين هم في ذمة المسلمين)

من يتدبر في تاريخ الإنسان من مبدئه إلى يومنا هذا يتحقق أن محبته لدينه قد تغلبت في فؤاده على كل محبة سواها فتراه يضحي نفسه وأهله وماله في سبل تأبيده ونصره. وهو قرير العين منشرح النفس هذه المحبة الدينية فهمها أكثر الاقوام على غير المراد منها. وقذفوا منها إلى الإفراط الهائل حتى حببت إليهم اجتراح كل أنواع المظالم. واقتراف أنكار الجرائم تحت حجة نصر الدين وكبح جماح الملحدين. حصل كل ذلك لجهل المتدينين لنواميس الحياة البشرية وقوانين الهيئات الاجتماعية مما كان له أسوأ أثر في تاريخ أمثال هذه الأمم الحقود.

أما الإسلام وهو دين المدنية الحقيقية وملاك السعادة الإنسانية فقد اختط لمتبعيه من هذه الحيثية خطة ليس في مقدور مجموع الفلاسفة كافة أن يقرروا مثلها في أذهان أممهم ولو بلغوا من السلطان على الأفكار أبعد غاية. كيف توصل الإسلام يا ترى إلى اقتلاع جذور الأحقاد الدينية من عقول متبعيه بدون أن يقابل شيئًا ما من محبته في أنفسهم مع علمنا بأن أكثر الأمم محبة لدينها واحتفاظًا به هي أشدها حقدًا على مخالفيها؟ أنه توصل لذلك بطريقة لم نسمع بها عن قادة المدنية ولم يقررها العالم العلمي إلا من منذ أمد قريب أي بعد أن وقع علماء الإنسان والعمران على أسرار النفس وتأثير المدنية عليها. فبينما كانت رؤساء أكثر الأديان الأخرى. يقولون لمتبعيهم أن الله قد أمر أن تكون العائلة البشرية كلها أمة واحدة متحدة الدين والأخلاق والعادات فاعملوا على تأييد هذا المبدأ ما

استطعتم لذلك سبيلًا فإن اختلاف النوع البشري يسخط الله لمعارضته لإرادته الأزلية كان الله تعالى يوحي إلى نبيه لباب الحكمة قائلًا له وللمؤمنين: «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم» * «ولوشاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعًا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين» * «إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء.».

وبينما كان رؤساء أكثر الأديان يأمرون متبعيهم بإستعمال أشد الطرق إلا كراهية فظاعة لحمل الناس على الدخول في ملتهم ولو أدى ذلك إلى قتل الأبرياء وتيتيم الأبناء وتخريب العمران وزعزعة أركان السلام كان الله تعالى ينزل على رسوله من سماء الرحمة آي الحكمة قائلًا له وللمؤمنين: «وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر» * «لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي» * و«أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلى بالمهتدين.»

كل هذه الآيات البينات غرست في أفئدة المسلمين قاعدتين عظيمتين محتا من نفوس كل حقد دينى ولاشتا كل تعصب مذموم: القاعدة الأولى هي فهمهم من منطوق هذه الآيات أن الله سبحانه وتعالى قضى في سابق علمه ضرورة افتراق العالم البشري إلى جمعيات متخالفة المبادئ. والغايات متباينة المشارب والاعتقادات فيكون الساعي ضد هذا القضاء الإلهي بغير ما رسم له عاصيًا ربه مستحقًّا سخطه وغضبه. القاعدة الثانية

هي استنتاجهم من هذه الآيات نفسها أن تنكب الناس عن دين الله سببه تفاوت مداركهم في ألفهم واختلافهم في درجات العقل وأن لا سبيل إلى انتشار هذا الدين إلا بين من أسعدهم الجد بإدراك سره وفهم المراد منه ولذلك أمرهم أن يسعوا إلى نشر الحقيقة الإسلامية من بابها وهو الدعوة إليها بالحكمة والموعظة الحسنة وبالجدل الذي لا تكون عاقبته وخيمة على أحد الجانبين. هاتان النظريان اللتان يفهمهما المسلمون من كتابهم المبين تجعلانهم لا ينظرون في اختلاف الأديان والمتدينين إلا أشياء مرادة لله تعالى سبق بها قضاؤه واستلزمتها حكمته؛ ليتم الإبداع الذي أراده وقدره لهذا النوع البشري. ويزيدهم رسوخًا في عقيدتهم هذه ما أثبته علماء العمران حديثًا من أن اختلاف النوع البشري ضروري لإنماء المدنية واستمرارها ولازم لإيراد هذا النوع موارد سعادته المرجوة.

بعد أن يقرر الإسلام في أذهاننا هذه المبادئ الحكمية يأمرنا بالتخلق بأخلاق الله في معاملة من يلوون كشحًا عن شريعته. فإنه سبحانه وتعالى قادر على أن يعاملهم بما لا يطيقونه ولكنه لا يفعل ذلك بل يعاملهم في الحياة الدنيا أسوة غيرهم وربما ميزهم عن سواهم إذا كانوا أكثر أهلية منهم لنيل السعادة المادية: «ومن يرد حرث الدنيا نوته منها.» نعم، يأمرنا الإسلام أن نسدل ستارًا كثيفًا على معتقدات مخالفينا في الدين ويحثنا على معاملتهم بأنواع الرفق ومكارم الأخلاق. قال تعالى: «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين.» وينهانا عن أذاهم ومماكرتهم ونصب المخاتل

لمشارتهم. قال عليه الصلاة والسلام: «من آذى ذميًا فأنا خصمه ومن كنت خصمه فقد خصمته يوم القيامة» * «من قذف ذميًا حد له يوم القيامه بسياط من نار».

هذا وديننا الكريم يلزمنا بمساواتهم بأنفسنا أمام القانون ويزجرنا أشد الزجر على إهتضام حقوقهم وهو الأمر الذي لم يسبق له مثيل في تاريخ أي أمة من أمم الأرض. أرني أي أمة تأيدت فيها قواعد العدالة ورسخت فيها أصولها، لدرجة تقتل أحد أعضائها عقوبةً له على قتله أحد الأجانب عن دينها الرسمي حالة كونها في أوج عظمتها وقادرة على أن تفعل ما أرادت من أنواع المظالم في جانبهم؟ جاء في التاريخ الإسلامى أن يهوديًا اشتكى عليًا للإمام عمر رضي الله عنهما وعلي كما لا يُخفى ابن عم النبي وزوج ابنته وأحد المرشحين لمركز الخلافة– فقال له قم يا أبا الحسن فاجلس أمام خصمك ففعل ولكن مع تأثر لاح على وجهه فلما انتهت القضية سأله عمر قائلًا: أكرهت يا علي أن تجلس أمام خصمك؟ – قال لا ولكني تكدرت لكونك لم تلاحظ المساواة بيننا، بقولك لي يا أبا الحسن (لأن الكنية تشير إلى تعظيم). قال لي بعيشك هل ورد في تاريخ بني آدم مثل هذه المساواة أمام القانون بين أحد عظماء أمة عظيمة يهز اسمها عروش الملوك والقياصرة وبين رجل من السوق غريب عن ديانتها؟ هذا هو تاريخ الأمم جمعاء يخبرنا أن المساواة لهذا الحد لم تقرر حتى بين الطبقات المختلفة في الأمة الواحدة إلا من منذ زمن قريب جدًا مما يحدو بنا إلى الجزم بأن هذه العدالة الحقة لم يعمل بها مطلقًا إلا في الأمة الإسلامية.

كانت العدالة في الأمم المتمدينة القديمة اسمًا بلا جسم وكانت العقوبات تتنوع وتختلف باختلاف الرتب والألقاب، أما الشعب ذاته فكان تحت رحمة أهواء سادته الأعلين وقادته الغالين. أما المساواة التي يتبجح بها فلاسفة هذا العصر فهي بنت الثورة الفرنسية الهائلة التي بيعت بها المهج بالمجان وصبغت فيها الأرض بالأرجوان. قال المسيو لاروس في دائرة معارفه: إن العقوبات في روما عاصمة دولة الرومان كانت تختلف دائمًا في الجنايات المتشابهة على حسب اختلاف حالة المجرمين وحيثيتهم» ثم ذكر تفصيل ذلك الجور وانتقل من قانون الرومان إلى قانون الفرنسيين قبل الثورة الفرنساوية، وألصق به مثل هذا الخلل في قواعد العدالة ثم قال: «إن ثورة سنة ١٧٨٩ قذفت كل هذه الامتيازات بنفس الحركة التي محت الألقاب المختلفة التي كانت تابعة لأصالة الشخص أو للوراثة».

فقل لي بعيشك كيف لا يفتخر المسلمون بدينهم إذا تحققوا أن هذه المساواة التي يقول عنها الفلاسفة أنها سبب كل سعادة إجتماعية لم تقرر لأول مرة إلا في الجمعية الإسلامية، وأنها لم تقرر فقط بالنسبة للمسلمين فيما بينهم بل بين أعظم عظيم فيهم وبين أحقر حقير من غير ملتهم؟ اللهم إنا نعتقد أن هذه العدالة ليست من موضوعات البشر ولم تكن في مكنتهم مطلقًا قبل أربعة عشر قرنًا بل هي عدالتك التي غمرت كل شيء وسادت كل شيء فمتعنا اللهم بالتدبر في معجزات دينك إنك على كل شيء قدير.

الإسلام يأمرنا بمجاملة الأجانب عن ديننا ومحاسنتهم ولكن لا من

باب المواربة والمداهنة خوفًا منهم أو طمعًا فيهم. كلا، بل عن صفاء نية وسلامة طوية حتى أنه ينهانا عن اغتياب أحدهم وذكره بما يكره كما ينهانا عن اغتياب أحدًا سواء بسواء. ولم يحلل لنا بوجه من الوجوه نصب الحبائل لهم لمصادرة أشيائهم تحت ستار القانون المموه أو العدالة الوهمية كما فعله ويفعله كثير من الأمم بالنسبة للمخالفين لمعتقداتها.

وقد ترك لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أعظم أسوة يجب أن نتأسى بها في معاملة الأجانب عن ديننا ومخالفي معتقداتنا. فإنه عليه أشرف التحية والسلام كان يحضر ولائمهم ويغشي مجالسهم ويشيع جنائزهم ويعزيهم على مصائبهم ويعاملهم بكل أنواع المعاملات الاجتماعية التي لا بد منها في كل جمعية محكومة بقانون واحد وشاغلة لحيز مشترك. رَوَتْ السنة الكريمة أن سيد الأنام صلى الله عليه وسلم كان يقترض من أهل الكتاب نقودًا، ويرهنهم أمتعته الشريفة لا عجزًا من أصحابه عن إقراضه، فإنه كان منهم المثرون وذوو الأملاك الشاسعة وكلهم مستعد لأن يُضحي نفسه ونفيسه في سبيل مرضاة نبيه، ولكنه صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك تعليمًا للأمة وإرشادًا لها أن الإسلام أكبر وأجل من أن يأمر ذويه بقطع العلائق مع من يعيشون معهم في مكان واحد بحجة أنهم مغايرون لهم في المعتقد. وفي ذلك دلالة ناطقة على أن المسلم يستطيع أن يعيش بمفرده في بلاد أجنبية عن دينه ولا يضره كون أهلها من غير ملته بل ويسمح له أن يتزوج منهم.

ليس فيما بين أيدينا من أسفار المدنية ما يرينا أن هناك فلسفة تهدي

إلى إحترام النوع البشري بمثل ما يهدي إليه الإسلام ويأمر به. تصفح تواريخ الأمم سابقها ولاحقها تر بعينيك من آثار قسوة الإنسان على الإنسان ما يحملك على اليأس من سيادة ناموس الإحترام النوعي بين أفراد البشر وتجعلك تثق بقول المتني:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفـــة فعلـــه لا يظلـــم

نعم، يرينا التاريخ من آثار ظلم الإنسان للإنسان ما تقشعر له الأبدان ويخجل منه الحيوان وان كل هذه الفظائع كانت تحصل انتصارًا للأديان. نحن لا نتصور أن دينًا سماويًا يأمر ذويه بالفتك بمن يخالفهم واستئصال شأفتهم بأفظع الطرق، ولكننا ننسب ذلك كله إلى سوء فهم متبعيها وإدخالهم الغش والتدليس فيها لمآربهم الشخصية وأميالهم البهيمية. قد بلغت تلك الوحشية في الإكراه لدرجة كانوا يرمون بني نوعهم طعمة للنار المتأججة أو فريسة للحيوانات الكاسرة أو يربطون رجله في ذيلي حصانين شديدين ويطلقونهما في اتجاهين متخالفين .أو يصبون على جلودهم القطران والقار الغاليين في النار. أو يعلقونهم على نيران هادئة أيامًا عديدة ولا يهتمون بأنيهم ولا زفيرهم؛ فتتساقط لحومهم وتذوب شحومهم. كل ذلك كان حصل على مرأى ومسمع من الناس فلا يجدون من أنفسهم فؤادًا يشفق أو إحساسًا يتأثر بل كانوا يمرون عليهم متفرجين متشفين.

قل لي بأبيك أين هذه الصدور المتأججة بالأحقاد الملتهبة بالإضغان التي تحمل ذويها على استئصال الأمم ومحو اسمها لمجرد رفضها ترك دينها من تلك الصدور الإسلامية الرحبة المملوءة حكمة ورحمة المفعمة مروءة

وهمة؟ تلك الصدور التي كانت تسمح لنواقيس الكنائس أن تدق بآزاء مآذن المساجد بدون أن تحرك منهم ساكنًا أو تسبب غيظًا. بينما كانت مقاليد مقادير العالم بأسره بين أيدي المسلمين بلا منازع ولا شريك، فإنهم كانوا يستطيعون ولا شك أن يحجروا على حرية أديان مخالفينهم مثل ما فعلت الرومان وغلت فيه.

كان الجيش الإسلامي يدخل مكللًا بالفخار في أحشاء المالك المخالفة له اعتقادًا فيجعل أكبر همه طمأنة الناس على دينهم وتهدئ روعهم على حفظ معابدهم متعهدًا لهم بحمايتهم والدفاع على ذمارهم ويطلق لهم تمام الحرية في إجراء كل طقوسهم الدينية وعوائدهم الملية: كل ذلك عملًا بتعاليم الإسلام وجريًا على سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام.

هل بعد هذا يستطيع مكابر أن ينكر على المسلمين إحترامهم للنوع البشري أكثر من كل أمة سواهم أو يجحد أن دينهم أعلى وأسمى من أن يُبنى على إختلاف المعتقدات الإباحة المطلقة في سبيل الفتك والقسوة؟ الإسلام لا يحلل الجور لمتبعيه حتى مع ألد أعدائهم في ساحة الوغى وميدان الهيجاء قال تعالى: «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين».

الإسلام لا يأمر الرجل بقطيعة أهله لمخالفة دنيه لدينهم بل يوجب عليه معاشرتهم بالمعروف وعمل كل الطرق في أداء واجباته نحوهم قال تعالى: «ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنًا على وهن وفصاله في عامين أن أشكر لي ولوالديك إلى المصير. وإن جاهداك على أن تشرك بي

ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفًا وأتبع سبيل من أناب إليّ ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون.».

روي عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: أتتني أمي راغبة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم فسألته أأصلها قال نعم قال إبن عتيبة فأنزل الله تعالى: «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين» الآية وأرسل عمر على عهد رسول الله صلى عليه وسلم حلة إلى أخيه هدية وهو مشرك.

الإسلام دين عام لم يجعله الله خاتمة للأديان: وهو مريد به التفريق بين الأهل والعشيرة ولا بين أبناء الوطن الواحد ولا بين النوع الإنساني بأكمله، بل أن الرجل ليستطيع أن يكون مسلمًا، وهو في عائلة كل أفرادها مخالفون له في المعتقد والمذاهب ولا تحمله تلك المخالفة على عمل شيء ضدهم على الإطلاق بل يلزمه الدين بعمل واجاته بالنسبة لهم والمدافعة عن حقوقهم ما داموا مراعين نحوه شراط المحبة وصدق النية.

الإسلام لا يكلفنا بجميل الخصال ومحاسن الخلال لنفعلها فيما بيننا فقط بل يكلفنا بها لنقوم بها نحو العالم أجمع طارحين على اختلاف الديانات غطاء كثيفًا وحجابًا غليظًا. قال عليه الصلاة والسلام: «خاب عبد وخسر لم يجعل الله في قلبه رحمة للبشر» وقال: «تصدقوا على أهل الأديان كلها» بهذه الأوامر الإلهية عمل المسلمون ويعملون ولو اتهمهم بضد ذلك المضلون.

كان عمر جالسًا بين أصحابه فمر به رجل من أهل الذمة يتسول فنظر إلى مجالسيه وقال لهم: أنا لم ننصف الرجل أيصح أن نأخذ منه الجزية

وهوشاب ونتركه يتسول وهو شيخ؟ كلا. وأمر له براتب يُصرف له من بيت مال المسلمين. فتدبر رحمك الله في هذه النفوس الكريمة والذرائع الرحبة وأعجب كيف تمكن الإسلام بنور الله أن يؤثر على أفئدة أولئك العرب الذين كان يضرب المثل بجاهليتهم، حتى جعلهم غرة في وجه المكارم وآية في عدم الحقد الديني في زمان كانت فيه هذه الأميال الشريفة مفقودة من بين النوع البشري بأسره.

أما حسن معاشرة المسلمين لمن يعيشون بين ظهرانيهم من أصحاب الديانات الأخرى فمما لم يرد مثله في تاريخ البشر قاطبة. نعم، بلغت مهم حسن المعاشرة لمخالفيهم في المعتقد مبلغًا لا تراه يحصل الآن ولا بين أخوين شقيقين ربيا في أسرة واحدة وتفرعا من نبعة مشتركة. قال مجاهد: «كنت عند عبد الله ابن عمر وغلام له يسلخ شاة فقال يا غلام إذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودي حتى قال ذلك مرارًا فقال له كم تقول هذا؟ فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا أنه سيورثه» قارن رحمك الله بين هذه المعاملة المدهشة وبين ما تسمعه في البلاد المتمدينة من الجمعيات السرية والجمهورية التي تتألف يوميًا ولاهم لها إلا اضطهاد اليهود وإذلالهم. هل بعد ما بيناه في هذا الفصل يستطيع كلاب الفتنة وذئابها أن يسمعوا المسلمين بتهمة الحقد الديني (التعصب) وإضمار الشر لكل من ليس من ملتهم؟ أنا نسمع كل يوم في بلاد المدنية بأمر نازلة من وثار الحقد الديني ما يجعلنا نخجل من سماعها، فهل سمعت يومًا أنه قامت في بلاد إسلامية جمعية جعلت همها معاكسة طائفة من الطوائف التي تدين بغير الإسلام؟ اللهم لا.

نحن قبل أن نختم هذا الفصل نود أن نثبت للقارئ أن الحقد الديني الذي برهنا على تجرد الإسلام والمسلمين منه منذ ثلاثة عشر قرنًا إلى الآن كان ديدن سائر الأمم وداءها الذي أعيا أطباءها وأنه لم يتوصل إلى تخفيفه –ولا أقول ملاشاته– إلا منذ قرن تقريبًا ولا نرى لذلك سبيلًا أحسن من نقل ما قاله الفيلسوف الطائر الصيت جون سيمون في كتابه حرية الإعتقاد قال: «إن حرية الأديان ليست ببعيدة العهد فإن تاريخ العالم كله هو عبارة عن تاريخ الحقد الديني (التعصب) هذا الحقد الديني الذي هو أقدم من الحرية يتصاعد الى أبعد عصر في التاريخ» ثم عدد آثار التعصب المذموم في العالم كله من القرون الأولى إلى الإعصار الوسطي ثم قال: «وأخيراً توصلت الروح الفلسفية إلى تقرير حرية الأديان في ٤ أغسطس سنة ١٧٨٩ ولكن لم تحقق هذه الأمنية العادلة إلا في سنة ١٧٩١ وهو تاريخ تحرير اليهود من المظالم. ومع هذا كله فإن الثورة الفرنساوية على ما كانت عليه من خلوها من حسن الادارة في الأعمال لم تتمكن من تأسيس الحرية الدينية.».

أما يحق لنا نحن بعد هذا كله أن نرفع صوتنا قائلين: «ليحي الإسلام دين المدنية والسلام؟»

٣ - واجبات المسلمين بالنسبة لمعاهديهم

إن حفظ العهد واجب من أكبر الواجبات الإسلامية فلا يبيح الإسلام نقضه لأي سبب من الأساب إلا اذا كان المعاهدون هم البائدون بنقضه، كما أنه لا فرق لدينا في حفظ العهد بين أن يكون معاهدونا من أهل الكتاب أو من المشركين. قال الله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا أوفوا

بالعهود» وقال الله تعالى بعد تعداده لصفات المؤمن: «والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون» هذا ومن يتصفح تاريخ الإسلام من أول نشأته للآن يتحقق أن المسلمين رجال يضرب بهم المثل في حفظ العهد وصدق النية في القصد وفي تاريخ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمثلة تليق أن توضع نصب أعين قادة الأمم في طهارة الذمم وعلو الهمم. ومن يتصفح القرآن الكريم يرَ فيه من الأوامر

لحفظ العهد والنهي عن نقضه ما يجعله يتأكد أن الشريعة المحمدية لا تضارعها شريعة أخرى من حيثية مطابقتها لقواعد العدالة وشدة يقظتها في عدم تعدي حدودها. ألا ترى أن الدين في أثناء تحريضها لعصابته الضعيفة بالثبات أمام عدوهم الشديد البطش لم يغفل عن تذكير أبنائه –حتى في هذه الساعات الشديدة المخاوف– بمعاهديهم؛ لكيلا يلحقوا بهم أقل أذى؟ فقال الله تعالى: «وبشر الذين كفروا بعذاب أليم إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئًا ولم يظاهروا عليكم أحدًا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين».

أما معاملة المسلمين لأفراد الأمم المعاهدة لهم فلا تفترق عن معاملتهم لأهل الكتاب الذين تقدم الكلام عليه في الفصل السابق وقد أوصى عليهم نبينا صلى الله عليه وسلم فقال: «أمرني ربي أن لا أظلم معاهدًا ولا غيره» وقال عليه الصلاة والسلام: «من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة» * «من أمن رجلًا على دمه فقتله فأنا بريء من القاتل ولو كان المقتول كافراً» هذا ومن يتصفح تاريخ الأمم المتمدينة في القرون

السابقة يقشعر جلده من سلوكهم من الأمم الضعيفة، فإنهم ما كانوا يعرفون للحق قانونًا غير القوة ولا للفضيلة ناموسًا غير القوة. فمن كان ينكده الحظ بأن يصير ضعيفًا كان يقع تحت ذل الأسر والعبودية ويقيد بالسلاسل والأغلال ليكون آلة لمواليه في الحراثة أو الصناعة أو غير ذلك.

٤ - واجبات المسلمين بالنسبة لمحاربيهم

من المجمع عليه تاريخيًا أن النبي صلى الله عليه وسلم قام بأمر الدعوة الإسلامية بمفرده في مكة المكرمة فتبعه أفراد قليلون منهم نساء وأطفال وشيوخ فأُضطهد هو ومن أسلم معه اضطهادًا شديدًا. وعذبوا عذابًا أليمًا مما لا يمكن أن يحتمله إلا من يرى الهلاك أيسر عليه من الارتداد عن حقيقته مثل ما حصل لخباب رضي الله عنه، حين أسر وعذب بالنار ولما عرضوه للقتل؛ استأذن في صلاة ركعتين فصلاهما، ثم قال لولا أن تظنوا أن ما بي جزع لأطلتهما. اللهم احصهم عددًا. وأقتلهم بددًا، ولا تبق منهم أحدًا، ثم انبرى منشدًا:

ولست أبالي حين أقتل مسلمًا — على أي جنب كان لله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ — يبارك على أوصال شلو ممزع

هذا ما حصل لأحدهم وما كان يحصل لغيره أشد وأفظع مما يطلب تفصيله من كتب التاريخ. فإستمرت هذه المصائب على هؤلاء المسلمين مدة ثلاث عشرة سنة. ثم أذن له بالهجرة إلى الحبشة أولًا، ثم إلى المدينة ثانيًا؛ فنموا واشتد ساعدهم فرمتهم العرب كلهم عن قوس فظلوا في المدينة في أشد الخوف والوجل حتى كانوا يقولون: «ترى نعيش حتى نبيت مطمئنين لا نخاف

إلا من الله عز وجل.» فأنزل الله عليهم هذه الآية طمأنة لهم وتسكينًا لروعهم. «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنًا يعبدونني لا يشركون بي شيئًا.» ثم لما تجمهرت عليهم القبائل وأتتهم متحمسة حاقدة بقصد إبادتهم واصطلامهم أذن الله لهم أن يدافعوا عن أنفسهم ويثبتوا واعدًا إياهم بالنصر والتمكين والفتح المبين فقال تعالى: «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرًا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز.» فكان سيد الأنام عليه الصلاة والسلام ومن معه من النفر القليل يلاقون بصدورهم تلك الجيوش الهائلة والكتائب المتراكبة المتراكمة وهم مطمئنون متيقنون أن الله تعالى لا بد أن يحقق وعده لهم ويمدهم حيث قال: «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم.» * «ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين.» * «وكان حقًا علينا نصر المؤمنين.» * «كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز.» فاستمرت نيران الحروب بين طائفة المؤمنين القليلة العدد والعدد وبين سائر قبائل العرب مدة مديدة امتحن الله في أثنائها قلوب عباده واختبر صبرهم وطاعتهم لأوامره على كل ما يمكن تصوره من المصائب. حتى تنقت قلوبهم من كل شائبة وصار إيمانهم أنقى من النقاء وأصفى من الصفاء. ثم مكن الله لهم في الأرض وجعل

كلمتهم العليا وكلمة أعدائهم السفلى.. وصاروا قادرين على إبادة أضدادهم عن بكرة أبيهم. ولكن كيف يتصور أن يحصل ذلك من دين الإسلام دين المدنية والسلام؟ حاشا بل كان الله تعالى يأمرهم بمبرتهم والعدل معهم قال جل جلاله: «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من ديارهم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين.».

ولما مكَّن الله للمؤمنين ووطد أمرهم وأراد أن يظفرهم على الذين ظلموهم في أول نشأتهم وأذاقوهم أنواع الآلام أمرهم ألا يتبعوا دواعي الانتقام والتشفي؛ لكيلا يخرجوا عن حدود العدل والحكمة وأراهم أن ذلك يعد عدوانًا وظلمًا قال تعالى: «ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب.».

لم تأت هذه الأوامر بالنسبة للمقهورين فقط بل يجب مراعاة الإعتدال والشرف والرحمة حتى في أثناء إشتعال نيران القتال قال تعالى: «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين.» ومن الإعتداء عند المسلمين سب أعدائهم ولعنهم. لما قتل المشركون عم النبي صلى الله عليه وسلم حمزة ومثلوا به وأخرجوا كبده بكى عليه بكاءً شديداً وحزن حزنًا لا مزيد عليه ودعا عليهم فأنزل الله تعالى: «ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون.» فعكف عن الدعاء عليهم وقال: لئن ظفرت بهم لأمثلن بأربعين منهم فأنزل الله تعالى: «وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير

للصابرين.» فقال عليه الصلاة والسلام: «أصبر وأحتسب.».

أما من جهة أسرى الحروب فإن النبي صلى الله عليه وسلم أمر المسلمين بمراعاتهم وإكرامهم وعدم إساءتهم فقال: «واستوصوا بالأسارى خيرًا.». فصار أصحابه ائتمارًا بهذا الحديث يكرمون أسراهم لدرجة أنهم كانوا يعطونهم خبزهم ليأكلوه ويكتفون هم بالتمر.

تدبر رحمك الله ما قدمناه لك في هذا الفصل تر التفاضل الواضح بين هذه العدالة الإلهية وبين ما تقرأه من سيرة الرومان وغيرهم من الأمم التي كانت جاعلة نفسها طاعونًا مجتاحًا للنوع البشري فهامت فيه قتلًا وسفكًا وتسخيرًا واستعبادًا. واعلم أن كل ما تراه من آثار العدالة في حروب هذا والعصر ليس هو إلا تقربًا لهذه العدالة الإسلامية التي هي نموذج لمنتهى ما يمكن حصوله في النوع البشري. فلندع الجمعيات الساعية لتأييد السلم في العالم وأبطال الحرب تعمل عملها العظيم وتجد فيه فإن الإسلام لا يهزأ بعملها هذا بل ينشطها فيه حتى إذا تم لها ما تؤمله بمساعدة الملوك والقياصرة ودعمته على دعائم الإخلاص وصدق الطوية مد كل مسلم إليها يده تاليًا قوله تعالى: «وإن جنحوا للسلم فأجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم».

نظرة على الإسلام والمسلمين

قد بسطنا في فصولنا المتقدمة كل أصول المدنية التي انبنى عليها كل ما نراه من الترقي في العالم المتمدين وأقمنا الأدلة الحسية على أنها بعض قواعد الإسلام حتى يتخيل للرائي أنها مستمدة منه ومأخوذة عنه، وبرهنا ضمن ذلك على أن هذه الأسس الإسلامية لا يحتمل أن يعتريها التبديل، أو يعدو عليها التحويل؛ لأنها ملائمة لسنن الوجود ومطابقة لنواميس الحياة البشرية المثبتة بالحس مطابقة لا يمكن نكرانها بوجه من الوجوه وقلنا إن كل ترق يحصل في العالم وكل خطوة تخطوها العقول في سبيل الكمال ليس هو إلا تقربًا إلى الإسلام وإنه سينتهي الأمر يومًا ما بإجماع عقلاء البشر كافة على اعتبار الإسلام ناموسًا عامًا للسعادتين وضامنًا لراحة الحياتين.

نعم! الإسلام هو الدين العام الباقي بقاء الأنام والقانون الذي تلمسته الفلاسفة الإعلام منذ ألوف من الأعوام. إهتم عقلاء الأمم من القدم بالبحث عن دين حق عام يقوم بحاجة الجثمان المادي والنفس المعنوية ويوفق بين مطالبهما على مقتضى ناموس عادل وقسطاس حكيم ويوجد النسبة الحقة بين أميالهما بطريقة تمنع تساقط أحدهما على الآخر إهتموا بهذا الأمر وتحسسوه من كل مظانه لعلمهم بأن الإنسان المركب من نفس وجسم إذا لم يراع تمامًا الاعتدال في مطالب هذين الجوهرين وقع في الإفراط في مطالب أحدهما ومتى حصل له ذلك؛ أخل بوظيفة الحياة ودفع نفسه في تيار شديد القوى لا يُسرع به إلا ليصدمه صدمة تذهله عن نفسه

فيصبح جائحة على بني نوعه أو عضوًا مشلولًا فيهم. رأي هؤلاء العقلاء وليس بعد الحس دليل أسطع ولا

بعد حوادث التاريخ برهان أقطع على أن كل المذاهب التي لم تزن مطالب الجسم والنفس بقسطاس مستقيم ولم تحدد لكلا هذين الجوهرين ناموسهما القويم تقسم الأمم التي تسود عليها إلى قسمين عظيمين تدوم بينهما الفتن المرهقة والقلاقل المزعجة آمادًا مستطيلة حتى يسود أحد أولئك القسمين على الآخر ومنى إمتلك حريته المطلقة ولم يجد أمامه مقاومًا يخفف من سيره تطرف واستهدف لكل ما يستلزمه الإفراط في أحد نوعي مطالب الإنسان ولم يلبث أن تصيح به الطبيعة البشرية صيحة ترده مدبرًا على عقبه فيصبح كأن لم يغن بالأمس. ومن يتصفح تاريخ الأمم ير بعينيه هذه الحقائق ساطعة واضحة لا تعوزه إلى بحث طويل..

أما نحن أول من يوافق هؤلاء الحكماء على أفكارهم من ضرورة تلمس مذهب عام يوفق بين مطالب الجسم والنفس توفيقًا عادلًا ويربط صلاح أحدهما بصلاح الآخر كما هو شأنهما طبيعة. وقد أثبتنا في فصولنا المتقدمة أن النفس عرضة للأمراض المختلفة والشفاء منها كما هي حالة الجسم سواء بسواء. ولما كان الرجل لا يستطيع أن يحمي جسمه من عوارض الطبيعة المهلكة إلا بتعلمه لقانون الصحة الجسمية. فكذلك يجب أن يكون هو ذاته على علم بقانون يسمى بقانون الصحة النفسية ليستطيع أن يمنع نفسه من غوائل الأمراض المعنوية القتالة. ولما كان هذا الجوهران المركبان للإنسان موضوعين بطريقة بها يتأثر أحدهما بمرض الآخر وجب أن

يكون ذانك القانونان اللذان يبحثان عن صحتهما متناسبين متلائمين، لكيلا يكون في السير على أحدهما إضرار بالآخر. هذه الحقيقة أصبحت في هذا القرن خصوصًا من البداءة التي لا يمترى فيها لأن حالة الوجود كله شاهدة بصحتها. وهذه الحقيقة نفسها هي التي بعثت خاصة علماء أوروبا إلى تأليف ديانة سموها الديانة الطبيعية أسسوا بنيانها على دعائم البدائة العلمية والحقائق الفلسفية ونحن نستحسن أن تأتي في هذه العجالة على أهم قواعدها مترجمة من كتاب (الأبحاث الأخلاقية على الزمان الحاضر) تأليف العلامة كارو. قال: «قواعد الديانة الطبيعية هي الاعتقاد بوجود إله مختار خلق الكائنات واعتنى بها وهو متميز عن العوالم الكونية وعن النوع الإنساني. والاعتقاد بوجود روح في جسم الإنسان متصفة بالذكاء والحرية ومحبوسة في هذا الجسم المادي أمداً لتبتلي فيه. وهذه الروح يمكنها بإرادتها أن تطهر هذا الجسم وتنقيه إذا عرجت به نحو السماء كما يمكنها بإرادتها أن تطهر هذا الجسم وتنقيه إذا عرجت به نحو السماء كما يمكنها أن تسفله باستثنائها بالمادة الصماء. والاعتقاد المطلق برفعة التعقل على الإحساس ووضع الحرية الاخلاقية التي هي ينبوع وأصل كل الحريات الأخرى تحت سيطرة الاعتدال الكلي. وإعطاء الأخلاق الفاضلة اسمها الحقيقي وهو الامتحان والابتلاء وتحديد غرضها الحقيقي وهو التخليص التدريجي للنفس من علائق الجسم. والتهيء لساعة الموت بالزهادة وأخيرًا الاعتراف بقانون الترقي ولكن بدون فصل رقي النوع الإنساني في مدارج السعادة المادية من العواطف الفاضلة التي هي وحدها تبرر تلك السعادة.».

لا شك أن كل من يمعن نظره فيما قدمنا من نصوص الديانة الإسلامية وفي قواعد هذه الديانة الطبيعية يرَ بعينيه أن الإسلام هو تلك الأمنية التي تحسها الفلاسفة وتلمسوها في سائر أبحاثهم العلمية من قديم الزمان إلى الآن. ثم يندهش ويتعجب من الخطوات التي يخطوها النوع البشري بين كل هذه القلائل الاجتماعية في سبيل الرقي والتدرج متقربًا كل يوم من قواعد الدين الإسلامي على غير علم من أفراده ويتأكد أن الإسلام هو الغاية القصوى التي وضعها الخالق جل شأنه أمام هذا النوع ووضع فيهم من القابلية والاستعداد لبلوغها ما تشاهد آثاره في تاريخ الإنسان مما هو مصداق لقول الله تعالى: «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق.».

من هنا أيضًا يدرك الممعن النظر سر ذلك التطور المدهش الذي حصل في الأمة العربية فجعلها خير أمة أخرجت للناس بعد أن كانت من الوحشية بمكان ليس دونه مكان.

فلنبحث في حالة المسلمين الآن وفيما هم واقعون فيه من العلل الاجتماعية التي انتهكت قواهم منذ قرون عديدة لنعلم أين الداء وما هو الدواء. نعم، بحث هذه المسألة قبلنا كتاب فطاحل ولكن بغاية الأسف رأينا أكثرهم أغضى كل الأغضاء عن ذات العلة وأخد يجهد نفسه في مداواة الأعراض المرضية وهذا جهد لا يبلغ صاحبه أمنيته ما دام سبب المرض لم يزل ينتج أفاعيله على حسب قانونه الخاص به ويسير سيره الطبيعي في جسم الهيئة الاجتماعية الإسلامية. أما نحن فلا نريد أن نسلك

هذا المسلك الذي لم ينتج فائدة ما بل نريد أن نثقب أغلفة أدواء الشرق المتراكبة على بعضها حتى نصل بعون الله إلى معرفة ذات العلة. ومتى عرفناها سهل علينا ولا شك معرفة دوائها وكيفية تطبيقه فنقول:

لا يخفى على كل إنسان أن مدنية المسلين التي تكونت جرثومتها في جزيرة العرب فتفرعت أفنانها في مدة قصيرة الأمد على أكثر بلاد المشرق لم يكن لها من سبب أولى غير الديانة الإسلامية. ويتمكن كل إنسان باستقرائه التواريخ وعلوم العمران أن يستدل على أن هذه المدنية كانت أسرع المدنيات سيرًا وأكثرها لألاء وأوسعها بقاعًا وأعجبها منبتًا وأقواها امتلاكًا لأزمة ذويها وتأثيراً على أذهان متبعيها وأنها كانت جامعة لناموسي كل السعادات الاجتماعية وهما العلم والعمل.

هذه أمور يهديها النظر المجرد في تاريخ المسلمين في مبدأ أمرهم ولكنا الآن لو أجلنا نظرنا جولة صغيرة على جميع الأمم الإسلامية، فلا نرى إلا عكس ما كان عليه أباؤنا الأول نرى نواميس الانحطاط سائرة بنا القهقري وآخذة في محو وجودنا شيأ فشيأ. مع أن كل العناصر المكونة لمجموعنا لم تزل تدعي الإسلام وتحافظ عليه محافظة الإنسان على فؤاده. فهل ذلك مصداق لقول متطرفي فلاسفة هذا العصر من أن شأن الديانات عمومًا تقييد الإنسان عن الرقي ومنع النفوس عن التدرج في معارج الكمال؟ كلا. فإن أقل نظرة في حالة العرب في جهالتهم ووحشيتهم قبل الإسلام ثم في مدنيتهم وسرعة رقيهم بعده مما لم يعهد له مثيل عند سواهم تدلنا دلالة واضحة على كذب هذه المقولة. إذن هل هذا الأثر مصداق لقول

معتدليهم من أن كل قاعدة مهما كانت ممدينة للأمم ومرقية لأنها في عصر من العصور لم تخل من أن تكون محتوية على جرثومة تمنع الرقي في المستقبل لمضادتها لسنة الأزمنة والمناسبات! كلا، فإنا درسنا أهم نواميس الإسلام في كتابنا هذا درسًا مدققًا فلم نره إلا مطابقًا لقوانين الحياة البشرية ملائمًا لقواعدها ورأينا رأي العين أنه ليضع للرقي حدًا تقف النفوس عنده بل سن قواعد عامة وكسر كل قيد وضعه المشرعون الأول جهلًا منهم بسنن الحياة المستقلة. وأطلق كل خصائص النفس من أغلالها الأولى وترك إليها أعنتها ولكن بعد أن نقلها إلى جادة الاعتدال والحكمة ونحن لا ننتظر أن يأتي زمان يقال فيه أن الاعتدال مذموم وأن المحمود هو الافراط أو التفريط. إذن ما هو السبب في تأخر المسلمين حتى عن مساواة آبائهم في عشر فضائلهم؟ أما ** فلا نجد السبب إلا في هذا الأمر المهم ألا وهو سوء فهمنا لمعنى الدين وحمله على غير المراد منه وإليك التفصيل:

إنا قد برهنا في فصولنا السابقة بالاستناد على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأحوال الجمعية الإسلامية الأولى أن غرض الإسلام الأول– هو ترقية شأن الإنسان ماديًا وأدبيًا على حسب ناموس الرقي العام الذي أستدل عليه باستقراء أحوال الإنسان وتطوراته، وأنه لم يغادر صغيرة ولا كبيرة مما يطهر النفوس من شوائبها ويجعلها صالحة لأداء وظيفتها إلا أشار إليها ونبه بالتعويل عليها وقد تكلمنا على كل هذا بتفصيل لم يجعل للشكوك محلًا في الأذهان ولا للريب مجالًا في الوجدان. ولكن بإلقاء نظرة على مجموعنا الآن نرى سوادنا الأعظم لا يفهم من

الإسلام إلا أنه محض قواعد للعبادة ومجرد دعوات يقصد بها أعضاء الحاجات في الدنيا أو نيل الدرجات العلى في الآخرة ولا يعلمون منه إلا الشهادة والصلاة والصيام والزكاة والحج، وأما ما فيه من آيات الحكمة ومعجزات الفضائل التي بعثت الأمة العربية من جدث خمالتها الأولى إلى ذروة جلالتها التالية فقد ضربوا عنها صفحًا مع أنها هي لباب الدين ونبذة الإسلام والغرض الوحيد من إنزاله وتشريعه.

جاء الإسلام موفقًا بين مطالب النفوس من المقاوم المعنوية والمنازل الأخلاقية وبين مطالب الجثمان من الأشياء المادية ليكون متبعه إنسانًا كاملًا عادلًا بين مطالب طبيعتيه موفقًا بين أميال جوهرية فيقول الله تعالى: «وقيل للذين إتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرًا للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين.» ويقول رسوله صلى الله عليه وسلم: «ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه بل خيركم من أخذ من هذه وهذه.» ولكن لوى سوادنا الأعظم الكشح عن تدبر هذه الحكمة البالغة وتابعوا أهواء الأمم السابقة في فهم الدين وزعموا أنه محض عبادة ومتابعة عادة ولهم في ذلك أفكار ما أنزل الله بها من سلطان. يقول الله تعالى: «ولا تنس نصيبك من الدنيا.» ويقول رسوله صلى الله عليه وسلم: «إن من فقه الرجل استصلاح معيشته، وليس من حب الدنيا طلب ما يصلحك.» فأسدل الناس على هذه القواعد العليا أستار النسيان وزعموا من تلقاء أنفسهم أن الدين هو عبارة عن التفرغ الكلي من علائق الدنيا والانفراد المطلق من كل الأميال البدنية. فعلوا كل هذا ولم يعلموا أنه

السرطان الذي أباد الأمم السابقة والطاعون الذي استأصل النحل المتقدمة. ولكن كف يتأتى لهم أن يعلموا ذلك وهم منزوون في محالهم جاعلين سدًا منيعًا بينهم وبين هذه الآية؟ «أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور.»...

هذا الفهم السيء في معنى الدين أدانا إلى تغيير معنى التقوى عما كانت عليه في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمن أصحابه الكرام. فالتقى على حسب فهم دهمائنا الآن هو الرجل الذي خيم عليه الخمول والكسل وترك الجد والعمل ولم يترك له في الدنيا أقل أمل. وكان على تمام الجهل بأحوال الأواخر والأول. والذى إن مشى كان على مهل. وإن جلس كان في عنقه ميل وإن دعى إلى مهمة أورثها الخلل والزلل. هذه هي صفة التقى عند أكثرنا الآن وهو كما يراه كل متأمل في أحوال سلفنا الصالح مغاير تمام المغايرة لما كانوا عليه مناقض له على خط مستقيم. كيف لا وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهم أئمة التقوى وأمثلة الكمال الديني كانوا كما يعلمه الخاص والعام ويرويه التاريخ للأنام رجال الجد والعمل وأهل الشيم والهمم وقادة العلاء والعظم لم يتركوا مظنة للفخار إلا وردوها وراية للمجد إلا رفعوها حتى أعلوا كلمة الحق على الأباطيل وقوضوا دعائم الجور والأضاليل مما يدل مطالع سيرتهم على همة لو صادمت الجبال لسحقتها سحقًا أو لحظت الثريا لمحقتها محقًا. همة يقف أمامها غطاريف هذا العصر حيارى ولا تعد همتهم بجانبها إلا عجزًا

واقتصارًا. همة عرجت بنفوسهم إلى سموات الرفعة عن دنايا الأمور وسفاسف الأعمال وعلت بهم عن التدني للفجور وخسائس الأميال. همة كما ذادتهم عن الرتوع في مموه الشهوات بعثتهم إلى منازل الكمالات. وكما ردتهم عن وهاد الزلات حثتهم إلى تسنم نجاد المكرمات حتى صاروا ملائكة في صورة آدميين ونوراً ساطعًا ولو كان غلافه من طين: هذه هي التقوى التي رسمها الإسلام لمتبعيه وخطها لذويه لا ما نراه الآن من التقوى التي لو طبقت على الإسلام لرأيناها عين الفجور ونفس المحظور.

هذا الفهم السيء في التقوى الذي أوقعنا فيه جهلنا بحقيقة الإسلام جعلنا نقسم الناس إلى قسمين: قسم سميناه أهل الدنيا وهم الذين يعملون لفلاح البلاد وصلاح العباد سواء بصناعاتهم اليدوية أو بأبحاثهم الفكرية. وقسم سميناه أهل الأخرى وهم الذين تركوا الدنيا جانبًا ووقفوا أنفسهم على الصلاة والصيام والمشي في الطرقات خلف الطبول وتحت الأعلام. وانبنى على هذا التقسيم الوهمي الذي تأصلت جذوره في العالم الإسلامي منذ قرون عديدة أن وقف أهل الدنيا أنفسهم لتعلم العلوم التي عليها مدار السعادة المادية كما قصر أهل الاخرة أنفسهم على الاشتغال بالعلوم العبادية فصار القسم الأول بهذا الاعتبار جاهلًا للدنيا وأمورها جهلًا يوقعه في الشكوك والشبهات وصار القسم الثاني جاهلًا للدنيا وأمورها جهلًا أداه إلى العماية عن سياسة أحواله المعاشية فوقع في العوز الذي أداه إلى مد يده واراقة ماء محياه ولو كان ذلك تحت ستار رقيق وحاجز شفاف:

هذا التفريق بين الدين والدنيا مناقض تمام المناقضة لمبادئ الدين

الإسلامي من كل وجه ومعارض لأوامره بل ومعطل لأكثرها تعطيلًا.

قلنا فيما سبق أن الإسلام هو الدين العام الذي يوفق بين مطالب النفس والجسم توفيقًا لا محيص منه لمن أراد أن يستقيم على الجادة الحكيمة. وأثبتنا ذلك بالأدلة القاطعة وقلنا أن الانقطاع للعبادة ليس من مقررات الإسلام: «من تبتل فليس منا.» وأنه جاء لصلاح الدين والدنيا معًا «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة * وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم.» وأكدنا بالأدلة الناطقة أنه يحض على الكسب والعمل ويردع عن الخمول والكسل بعبارات أشد تأثيرًا على الأذهان من أقوال فلاسفة هذا الزمان وأن الأعمال في نظره مرتبطة بنية الفاعل ومقصده فإن ترك الإنسان المحرمات كلها وكان مقصده الرياء عد منافقًا موزورًا وأن نوى صالحًا فأخطأ فيه كان مثابًا مأجورًا قال عليه الصلاة والسلام: «إنما الأعمال بالنيات.» وقال علي رضي الله عنه ما معناه: «من أخذ الدنيا بما فيها وأراد بها وجه الله فهو زاهد ومن ترك الدنيا وما فيها ولم يرد بها وجه الله فليس بزاهد.».

قلنا كل هذا أو ما يقرب منه في فصولنا المتقدمة وأقمنا عليه الأدلة التي لا تقبل النقض ونزيد هنا تحويل الأنظار إلى أحوال الجمعية الإسلامية الأولى فإن أفرادها لم يكونوا منقسمين إلى قسمين قسم دنيوي وآخر آخروي بل يروي لنا التاريخ أنهم كانوا كلهم يدًا واحدة في العمل للدين والدنيا معًا فإن أبا بكر وهو أول المسلمين كان تاجرًا ولم يبطل مهنته إلا حين تبوأ عرش الخلافة. وروى الإمام أحمد بن حنبل أن أصحاب رسول

الله صلى الله عليه وسلم كانوا يتجرون في البر والبحر ويعملون في نخيلهم. ولقى أبو قلابة رضي الله عنه صديقًا له في المسجد فقال له: «لأن أراك تطلب معاشك خير من أن أراك في زاوية المسجد.» وكان عمر رضي الله عنه يقول: «ما من موضع يأتيني الموت فيه أحب إليّ من موطن أتسوق فيه لأهلي أبيع وأشتري.» ذلك؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحثهم على العمل للدنيا كما يحثهم على العمل للأخرى فكان يقول: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا» ويقول: «أحرثوا فإن الحرث مبارك.» ويقول: «أطلبو الرزق في خبايا الأرض» ويقول: «تسعة أعشار الرزق في التجارة ويقول: «العادة عشرة أجزاء تسعة منها في طلب الحلال».

هذه هي نصوص الديانة الإسلامية وأحوال جمعيتها الأولية في عدم التفريق بين الحاجيات الدينية والدنيوية. و هذا هو عين السبب الذي حمى المسلمين في مبدأ أمرهم من الانقسام إلى حزب ديني وحوب دنيوي وهو الأمر الذي يوجد التخالف بين نزعات الأمة وينشئ التناقض في أغراضها؛ فيتولد التضاغن والتباغض بين آحادها رغمًا عن كل عوامل التأليف بينهم وبمرور الزمن يستحيل الأمر إلى حدوث تلاطم بين هذين القسمين تلاطمًا يفضي بالجمعية إلى الفوضى الفكرية ومتى تأصلت تلك الفوضى تفككت عري الجامعة الأساسية التي تربط أجزاء الأمة بعضهم ببعض وأخذوا يشعرون بسريان الفساد على مجموعهم وسوء منقلبهم في مستقبلهم، فإذا أنتهى حال الأمة إلى هذه الدرجة أخذ القسمان الديني والدنيوي يتبادلان

إلقاء المسؤولية على بعضهما فينسب الدينيون ذلك الفساد الطارئ إلى تمادي الكافة في شهواتهم البهيمة ويعزوه الدنيويون إلى تقصير أساتذة الدين عن الإرشاد والقصور عن قمع نزغات ذوي الأهواء ويستمرون في هذه الملاجة الفارغة بينما تكون جراثيم الفساد آخذة في التفشي والانتشار جارفة الأمة أمامها إلى مهاوي الدمار والبوار.

هذه هي حالة الأمة الإسلامية فإنها بعد أن طرأ عليها من الحوادث ما فصم وحدتها الأولى فأوقعتها فيما وقعت فيه الأمم السابقة من الفصل بين الدين والدنيا وبين أهلهما أخذ كل فريق ينابذ الآخر ويلقي التبعة على عاتقه ولعل جيلنا الحاضر هم أكثر الأجيال شعورًا بضرورة فضائل الإسلام لبناء ما تهدم من مجدنا وأشدها تقريعًا لعلمائنا في تقصيرهم عن الإرشاد والتعليم على حسب مقتضيات الزمان الحاضر. نعم، إننا لنشعر بتهيء النفوس إلى أنتشاق نسمات الكمالات الإسلامية المحيية لتبرأ مما تراكم عليها من جراح الفساد الأخلاقي الذي قد عم وطم وساق النشأة الحديثة إلى نقطة فقدت فيه

الإحساس إلا بالدنايا والأدناس. نعم، إننا نرى بوادر ذلك الشعور لائحة إلا أننا نستميح من قرائنا الحرية لأجل أن نقول إن ذلك الشعور لم يستكمل شرائطه الضرورية. فكأني بالناس يريدون أن تمطر السماء عليهم هذه الفضائل الإسلامية فتغمر قاصيهم ودانيهم، وهم جالسون على أسرتهم منصرفون عن كل ما يقرب ذلك الأمل أو يجعله ممكنًا. بل كأني بهم يرون أن تلك الفضائل لا يمكن تأتيها إلا بواسطة رجال يلبسون شكلاً خاصًا من الألبسة أو يقرأون كتبًا مخصوصة في العلوم.

كلا، فإنا أن ظننا ذلك فقد بخسنا بحقوق عقولنا وكنا كالكسالى يودون لو يرزقوا بكل حاجياتهم وهم قعود في دورهم المنزوية، كلا، إن الفضائل الإسلامية التي كان يفهمها الإعرابي الخلوي في مدة قصيرة لا تعسر مطلقًا على نشأة هذه الأمة المتهذبة.

أُسس الإسلام لا تحتاج لأجل أن تنفذ إلى العقول إلى جدال أو إلى تمهيد بل هي قواعد سهلة المأخذ واضحة المسالك تشعر النفس عند علمها بها بطمأنينة وراحة لا يستطاع التعبير عنها بوجه من الوجوه. فإن كان الرجل عالمًا بحقائق الكون وأراد أن يفسر سر تلك الطمأنينة التي سادت على نفسه؛ فاستقرت بعد إضطرابها وهدأت بعد ثورتها فما عليه إلا أن يتدبر في أسرار الخلق وفي تكاليف الحياة البشرية وفي النواميس الناطقة السائدة على مجموع هذا الكون بأسره. وفي الغرض الذي يسعى إليه الإنسان رغمًا عنه ليرى بعينه عيانًا أن تلك الأسس الإسلامية على سهولتها وسرعة تعقل الجاهل لها هي الحجة الوحيدة إلى توصل الإنسان إلى سعادة مادته ومعناه وراحة دنياه وأخراه، وأنها هي نفس المحجة التي خلق الإنسان مطبوعًا على تلمسها رغمًا عنه والتي يراها الآن علماء العالم على بعد منهم ويسعون في تذليل كل الصعوبات للوصول إليها.

إذا كان هذا شأن أسس الإسلام من السهولة ومتانة القواعد فلماذا تتباكى على فقداننا تلك القواعد ونشتكي من قصور المرشدين عن ابانتها مع أنها مبسوطة بأصرح عبارة وأرق إشارة في القرآن الشريف وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما كتبه سلفنا الصالح؟ هل يظن المسلمون

أن الله تعالى لم ينزل القرآن إلا ليفهمه رجال مخصوصون أو ليقرأ سردًا وبدون تعقل على رؤوس القبور وفي أوساط الطرقات أو ليتلى بالألحان الغناء في ليالي الأفراح بين لغط الترجيلات ودخان السجارات؟ أم هل يظنون أن أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصح أن تتلى إلا لقضاء الحوائج وحصول البركات في المنازل؟ ليعلم المسلمون إن كل هذه الأمور تنافي الإسلام وتساعد على استجلاب سخط رب الإسلام.

إن القرآن وهو مجتمع زبد الحكمة، وأحاديث رسول الله: وهي خلاصة قوانين العمران لم يأمر الله بتدوينها في الطروس ونشرها بين سائر طبقات الأمة إلا ليتدبروا حكمها ويأتمروا بها فإنها ملاك السعادتين ومساك الحياتين وفي تاريخ المسلمين أكبر حجة على قولنا هذا. ها نحن شعرنا بالحاجة إلى كمالات الإسلام فما بالنا قعود عن أخذ حاجتنا منه كل على قدر أستطاعته، ولا نكلف نفسًا إلا وسعها.

ألسنا الأن كالكسالى يرون الغذاء أمام أعينهم وهم على شفا الهلاك من الجوع فينتظرون إنصباب الطعام إلى أفواههم بدون مد أيديهم؟

أليس من العار الشائن أن نصرف كل أوقاتنا في مطالعة روايات (أميل زولا) و (بول بورجيه) مع ضننا بجزء من ذلك الزمن على مطالعة ذلك الكتاب الذي جمع بين دفتيه أسرار هذا الوجود بأسره؟

إنا ندعي التمدين والتنور ونميل للتشبه بالمتمدينين في الجري وراء إكتشاف مساتير الكون ونرمي القاعدين منا بالخمول والموت الفكري ونحني رؤوسنا إعجابًا بنظريات (سبنسر) في العمران وغمتنا) و(تيرس) في السياسة

و(ريبو) في الفلسفة حالة كوننا صارفين النظر عن تدبر أسرار ذلك الكتاب (القرآن) الذي لو أفنى علماء العالم كله أعمارهم في تدبر بدائعه وحكمه لما وصلوا إلى الغاية منها، لعلنا نخجل من الاشتغال بالأمور الدينية تقليدًا لغيرنا خشية من أن نتهم بالقصور العقلي. إن كان كذلك فهو تقليد أعمى كان يغنينا عنه إجالة نظرنا قليلًا في كتابنا السماوي لنرى أن الإسلام ليس بالدين الذي يأمر بالانزواء والاستكانة أو بالتعصب مع الانغماس في المهانة أو بإضناء الجسم في العبادة مما هو مناف لمطالب المدنية الحاضرة والمستقبلة بل هو الدين الذي يأمر بالكد والعمل، ويحب الإنسان السؤدد وعلو الهمم ويهديه إلى الفضائل والشيم، كل ذلك بحكم لا تقارن حكم الفلاسفة بها إلا كما يقارن نور المصباح بنور الشمس في رابعة النهار. فالمتكلم في الإسلام والحالة هذه لا يكون مرددًا لأفكار قامت تكذيبها الشواهد الحاضرة بل يكون ناطقًا عن لسان الحكيم العليم بحكم لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، بنظريات تصيح بالدلالة عليها ألسنة هذا الوجود الصامت. بقواعد لا يعتريها خلل ولا يعتورها زلل، بأسس عليها يقوم العمران ومنها يشرف الإنسان على جنان العرفان. بأنوار تنفذ إلى صميم الفؤاد فتشرق فيه شمسًا لا يخبو ضياؤها ولا تنطمس لألاؤها تنير على المرء حزون هذه الحياة الكدرة وتفك له عقدها العسرة، تداوي جراح الأفئدة ما أصابها من سهام الحوادث وتضمد قروحها من طعنات الكوارث وتطرد عن النفوس شياطين أوهامها وتطهرها من غاشيات أحلامها فتسكن بعد اضطرابها وتجعلها تتجه إلى سعادتها من بابها وتمزق دونها كثيف حجابها حتى تجعلها صالحة لأن تطل على الملكوت الأعلى وتنال منه زبد العلم الأجلي.

ألا تنظر إلى حالة العرب من الخشونة والجهالة والهمجية قبل إشراق الإسلام عليهم ثم إلى مصيرهم بعده؟ إن الرجل منهم في الجاهلية كان يذهب بأبنته إلى الفلاة وهي على ذراعيه فيحفر لها حفرة وهي تنظر إليه وتحنو بفؤادها عليه فلا يجد في نفسه فؤادًا يحنو عليها وكان يدفنها حية بيديه ثم يذهب إلى أهله فرحًا مسرورًا كأنه لم يفعل إلا ما يستحق حسن السمعة ويغسل عنه وضر الشنعة. تدبر بعيشك إلى هذه القلوب القاسية والإحساسات العاتية ثم أنظر إليهم بعد اعتناقهم للإسلام. ترى ماذا؟ ترى رجالًا نالوا من العواطف الكريمة ما لم ينله رجل ربي في مهد الحكمة وغذي بلبان الرحمة، ترى أمثلة الشهامة والفضيلة وأساطين للسجايا الجليلة أو الأخلاق الجميلة قاموا يعلمون فلاسفة الأخلاق بمثالهم ومقالهم قصور ما دونوه في أسفارهم، ترى أناسًا نورهم يسعى بين أيديهم وفضلهم يغمر قاصيهم ودانيهم يفضلون الملائكة تقوي ووقارًا ويفوقون الأكاسرة همه واقتدارًا. أنظر إلى عمر بن الخطاب وهو الذي تعلم تاريخه في زمن الجاهلية وإلى ماذا آل أمره بعد أن أسلم ببضع وعشرين سنة: آل أمره إلى إدراك حكمة وسياسة وثبات أعز بها الإسلام والمسلمين وحفظ بها قوام ملكه العظيم بما يقصر عنه أكبر ملك تربى في مهاد التشريع ويكبو دونه أعظم فيلسوف ولد في حجر الحكمة والسياسة. وبلغ من رقة الفؤاد والتقوى درجة كان يسمع الآية من كتاب الله فيغشى عليه منها أو يمرض لأجلها أيامًا عديدة. فكأن المتنبي عناه بهذا البيت:

قسا فالأسد تفزع من بين يديه ورق فنحن نفزع أن يذوبا

من أين حصل له هذا وبماذا ناله، وهل درس الأخلاق في مدارسها

الكلية أو على العمران في مجامعها العلمية أو السياسة في معاهدها البرلمانية أو التشريع في المدارس الحقوقية؟ كلا. لا شيء من ذلك ولكنه كان يتلو القرآن وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ويتدبر فيهما ويسأل غيره فيما كان يتعسر عليه منهما.

هذا رجل واحد قد ضربناه لك مثلًا لترى بعينك سلطة الدين الإسلامي في إحالة الطباع وسرعة تأثيره في تغيير اتجاه النزعات وفي تنوير أذهان أبنائه ومتبعيه فما بالنا ننبذ هذه الكنوز وراء ظهورنا ونظل نتساءل عن حكمة نتعلمها أو أخلاق نتصف بها ونقتنع بعد إخفاق المسعى بأن نلقى تبعة فسادنا على غيرنا ونهذر بشقاشق تسيء حالنا وتقبح مآلنا تاركين حكم الله تعالى وسنن رسوله مقصورة على القصور والمدافن يتلوهما رجال لا خلاق لهم من العلم هكذا نفعل كلنا الآن والله شهيد علينا حيث يقول: «واتخذوا القرآن عضين فوربك لنسئلنهم أجمعين».

خلاصة القول أن دواء المسلمين الوحيد هو أن يفهموا معنى الإسلام ويدركوا أن غرضه الأول هو ترقية حالتي الإنسان المادية والأدبية معًا لإرتباطهما ببعضهما إرتباطًا كليًا لأجل أن تستطيع النفس أن تعرج إلى ما أعد لها من مقاوم العلاء عروجًا سريعًا. وأن يفقهوا أن لفظة عبادة في الإسلام لا تعني فقط العبادة الجسمية من ركوع وسجود بل أن كل ما يفعله الإنسان مريدًا به أمرًا يبني عليه إصلاح لذاته أو لأسرته أو لجمعيته أو لبني نوعه أو للكائنات كلها هو في نظر الإسلام من أحسن أنواع العبادة وأشرف أشكال الطاعة لله عز وجل: «إن المؤمن ليؤجر في كل

شيء حتى في اللقمة يرفعها إلى في امرأته والشاة إلى رحمتها يرحمك الله» حديثان شريفان. وإن يدركوا أن الإسلام لا يعارض التقدم في الصناعات والاكتشافات بل يحث عليها ويندب إليها ويؤاخذ المتقاعسين عن مجاراة غيرهم فيها. هذه الأسس الإسلامية تنطق بتأييدها مئات من الآيات القرآنية وألوف من الأحاديث النبوية وأحوال الجمعية الإسلامية الأولية حتى إن المرشد المتنور ليستطيع أن ينقشها في مخيلة تلميذه في درس واحد.

هذا هو دواء المسلمين ولكن دون وصوله للعامة المحرومين من المطالعة والإطلاع عقبات لا يزحزحها عن مواضعها إلا كرور الزمان عليها وحصول مناسبات مساعدة لنشرها.

وإنا نختتم مقالنا هذا برفع أكف الرجاء إلى الله جل وعز أن يهدينا إلى صراطه المستقيم ومنهاجه القويم وأن يوفقنا للسير على هدى رسوله الكرم وأن يحسن خواتمنا أجمعين آمين. وصلى الله على سيدنا محمد عبده ورسوله وعلى آله وصحبه ومتبعيه وسلم تسليمًا كثيرًا.

الأصول التي دعا إليها الإسلام

رأينا أن نلحق بهذا الكتاب بحثًا كتبناه بعد وضعه بنحو عشر سنين لما فيه من بيان لأصول الإسلام تحت نور العلم العصري. وهو بحث له موضعه من هذا الكتاب فإليك:

الإسلام هو الدين الذي جاء به خاتم النبيين محمد بن عبد الله النبي العربي صلى الله عليه وسلم وهو من أشهر الأديان وأكبرها شأنا وأقواها على الشبه وأبعدها عن الشكوك.

أوحى هذا الدين في القرن السابع الميلادي أي في عصر كان فيه العقل الإنساني قد بلغ رشد، واستعدت فيه النفوس لقبول وحي يوفق بين الدين والدنيا ويؤاخي بين العاجلة والآجلة، ويطلق للعقول حريتها الفطرية لاستجلاء غوامض الوجود، واستطلاع خافيات النواميس العاملة فيه.

مما يميز الإسلام عن سواه من الأديان التي تقدمته تصريح كتابه بأنه دين عام قال تعالى: «وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرًا ونذيرًا» وقد كاتب النبي صلى الله عليه وسلم ملوك الممالك المعروفة لذلك العهد يدعوهم إلى الإسلام بإسم هذا النص القرآني.

هل كان بالأمم حاجة إلى دين جديد؟

إن مجيء الإسلام للناس كافة وليس للعرب خاصة يستدعي أن يكون لجميع أمم الأرض حاجة إلى دين جديد فكيف كان حال تلك الأمم

في عهد البعثة المحمدية، وماذا كان مبلغ تلك الحاجة منها إلى الدين أو إلى أي حادث إجتماعي جلل؟

يحمل بنا أن نورد ذلك عن لسان أحد الأجانب عن الدين من بحائي الإفرنج فإنه أدنى لأن لا نتهم بتحيز وأن لا نوصم بمغالاة. فقد كتب البحاثة الفاضل المسير (جون لابوم) الفرنسي في مقدمة الفهرس الذي وضعه للقرآن الكريم المترجم إلى اللغة الفرنسية بحثًا في هذا الموضوع نراه أجمع ما كتب في هذا الباب ونحن موردوه هنا عنه. قال: لأجل أن يفهم الإنسان تمام الفهم مرمى دعوة من الدعوات يلزمه أولًا الإلمام بحال الداعي في ذاته، ولأجل أن يقدر قدر دعوته يجب عليه أن يدرس الجهة البشرية التي وجه همته للتأثير عليها. هذا هو الغرض من هذه لنبذة الوجيزة التي خصصناها للشرع العربي مؤسس ما يمكن تسميته بالجامعة الإسلامية.

كان ميلاد محمد (صلى الله عليه وسلم) في القرن السادس الميلادي وكان جو العام ملبدًا بغيوم الإضطرابات والفتن فكان شعب (الوزيغو) الآربيين في أسبانيا وفرنسا الجنوبية يصاولون الملك (كلوفيس) وأولاده الكاثوليكيين فكانوا من أجل ذلك يطلبون مساعدة إمبراطور مملكة الرومان الشرقية المدعو (جوستينيان) ثم أجبروا إلى الدخول معه في حرب جديدة تخلصا من سلطة القواد الذين جاؤهم بتلك المساعدة فقد كانوا يزعمون أن لهم حق الفاتحين لا مجرد ولاء المساعدين المحامين»

«وأما في فرنسا نفسها فكان أولاد (كلوفيس) هذا متغادرين متسافكين وكانت الحروب التي شبت نيرانها بين الملكة الوزيغوتية (برنهو)

والملكة الفرنكية (فيريد يجوند) تهيئ للتاريخ أشد الصحائف إثارة للأسى والكمد»

«أما في إنجلترا فكان (الأنجلو) ينازعون (السكسونيين) الأرض التي أحتلوها وأستعبدوا فيها ذرية (كيمريس) وهم أقدم المغيرين على تلك الجزيرة التي تتطلع اليوم للوقوف في مقدمة الأمم علمًا وصناعة وقوة – وهي التي كانت في ذلك الوقت مجالاً للقوة الوحشية السائدة في تلك الغياهب الحالكة.

«أما في إيطاليا فكان اسم (الرومان) وهو ذلك الأسم الشامخ قد فقد خطورته القديمة وكانت رومة وهي الشظية الأخيرة أو رأس ذلك التمثال الكبير المتهشم (يعني مملكة الرومان) في حالة تململها من إستحالة أمرها إلى مركز ديني بسيط ترتج وتضطر كلما ألم بها طائف من ذكرى عظمتها القديمة أيام كانت مركزًا دينيًا أصليًا، فكانت تهيئ نفسها لأن تكون مركزًا للبابوية وهي تلك السلطة الزمنية كما أقتضت سياسة (شارلماني) أن يجعلها كذلك بعد قرنين من الزمان. ولكنها بعد ذلك لم يسعها حمل نير (الهيرولين) (والأستروغوتيين) وإمبراطرة المملكة الرومانية (والأومبارديين) الذين تداولوا السلطة عليها تداولاً».

«أما مملكة اليونان التي كانت قد نسيت مجدها القديم فكانت تابعة لمملكة الرومان الشرقية مثلها منها كمثل الزينة ذات الضوضاء وكان شرق أوروبا مقلقًا جنوبها من أول مصاب نهر (الران) من جهة الغرب لغاية مصاب نهر (الدانوب) من جهة الشرق فكان (الإسكنديناڤيون)

و(النورفيجيون) و(الدانيماركيون) يتزاحمون في الطريق الذي سلكه (الجوتيون) و(الهونيون) الذين أحتلوا (تراقيا) و(مقدونيا) و(لومبارديا) و(إيطاليا) سواء بالقوة أو بالخديعة».

«وفي ذلك الوقت بدأ ظهور الأتراك من أعماق آسيا الصغرى وهي تلك الأمة التي قصرت فيما بعد مملكة اليونان على أسوار القسطنطينية».

«التصوير البديع الذي جادت به قريحة المسيو (رينان) لبيان مركز الإمبراطورية الرومانية في القرن الأول من التاريخ المسيحي لا علاقة له البتة بالتصوير الممكن عمله لتجليه حال أوروبا في القرن السادس: تلك كانت مفاسد قيصرية مختمرة، أما هذه فوحشية حرية تلعب بالارواح وتتمرغ في الأوحال[1].

«أما آسيا فلم تكن أهدأ بألا من أوروبا في شيء، فمملكة (تيبت) و(الهند) التي أقتبست منها الأمم السائدة في أوروبا الآن فرائحها وأفكارها العامة ولغاتها السياسة والفلسفية. وبالإختصار أغرب المسائل الإجتماعية، كانت هذه الممالك كلها متمزقة الأحشاء بالحروب الداخلية والخارجية المتضاعفة بالمنازعات الدينية».

«أما السفح الشمالي من الهضبة الأسيوية العالية التي هي في حوزة الروسيا الآن. فكانت غير معروفة على الإطلاق، أما مملكة الفرس التي كانت أحوالها مرتبطة بأحوال العرب خصوصًا من لدن غارة الأسكندر

---

(1) كتاب الأنبياء الفصل السابع عشر

المقدوني فكانت مشتبكة في حروب مع اليونان الرومانيين في القسطنطينية الذين كانوا أصحاب السلطة على أسيا الغربية.

«أما في أفريقيا فكان هؤلاء اليونان الرومانيون أنفسهم وهم أخلاط من عساكر وتجار وحكام مجموعون من آفاق مختلطة دائبين على إمتصاص دم القطر المصري وعاملين على جعل مصر العلمية ذات المجد القديم كالجثة المصبرة عديمة الحس والحراك وكان هذا شأنهم أيضًا في الأقاليم الخصبة وقتئذ الواقعة في الجهات الشمالية من أفريقيا التي إنتزعوها من أيدي (الفنداليين).»

«والخلاصة كان جو العالم الأرضي متلبدًا بسحب الإضطرابات الوحشية في كل جهة. وكان إعتماد الناس على وسائل الشر أكثر من إعتمادهم على وسائل الخير وكان أجمع الرؤساء للثقة والطاعة أشدهم صيحة في أصلاء نيران الحروب والمعارك ولم يكن يأخذ بعواطف القلوب ولا يؤثر عليها تأثيرًا حادًا وإن كان وقتيًا إلا شيء واحد وهو الغنيمة وسلب الأمم والشعوب والمدائن والأعيان ورجال الحروب وفقراء الحرائيين وبسطاء المتسولين، ولولا شعاع ضئيل من الحكمة كان يتألق في بعض صوامع الكهنة وبعض الجراثيم الفلسفية التي كانت بمعزل عن أعاصير تلك المشاغب، وانتقلت من روح إلى روح أخرى بواسطة بعض أصحاب الجسارة من رسل الرقي في المستقبل لكانت البربرية أسرعت في خطاها مقودة بغطرسة زعماء البهيمية واستحالت إلى وحشية محضة».

«ومع هذا كله كان هناك ركن من أركان الأرض لم تصبه لفحة من

هذه الحركة ولكن لم يكن ذلك لحكمة أهله ورجاحة عقولهم، بل بسبب موقعهم الجغرافي البعيد عن مضطرب الأمم التي كان يقال إنها متمدينة. ذلك الركن هو شبه جزيرة العرب التي ما كانت تسمع انفجار أعاصير تلك الفتن الهائلة في أوروبا إلا عن بعد وما كان يصلها ذلك اللغط إلا في غاية الضعف والضؤولة. وكانت تجهل وجود الهند والصين ولم تك تتعدى علاقاتها مع آسيا حدود بلاد الفرس، ولم تعرف لديها الفرس إلا بواسطة أخبار الانتصارات أو الهزائم التي كان من ورائها رد بعض الوديان الغربية القريبة من روسيا إلى تبعية إمبراطرة القسطنطينية تبعية أسمية، أو رفع نير تلك بالتبعية الأسمية عنها. على أن ذلك الوادي الأخير كان يهم بلاد العرب جدًا لأن أبناءها كانوا يذهبون إليه للتجارة وكان لها فيه أبناء استعمروا الشاطئ الغربي من نهر الفرات وصعدوا رويدًا رويدًا إلى بحر قزوين. ومما يشبه المساتير الدينية إنها بقيت منفصلة عن القطر المصري الذي أغار على جنوبه العرب الرعاة ولم ينجلوا عنه تمامًا إلا بعد أن أنجلى عنه بعض إخوانهم المتأخرين وهم الإسرائيليون تحت قيادة موسى (عليه السلام) حينما أسترد المصريون السلطة وعاملوهم معاملة البهائم».

«أما المملكة الوحيدة التي كان بينها وبين العرب صلة وعلاقة فهي بلاد الحبشة، أما الجهة الشمالية من أفريقيا التي أغاروا عليها مرتين والتي كانت بجانبهم نقطة النزاع بين الرومانيين والقرطاجيين وبين يونان القسطنطينية والفنداليين فكانوا لا يحملون بوجودها «ثم قال: قال المسيو (كوسان دوبر سوفال) في كتابه تاريخ العرب: «إن المتحضرين من عرب

البحرين والعراق كانوا خاضعين للفارسيين أما المتبدون منهم فكانوا في الحقيقة أحرارًا لا سلطة عليهم وكان عرب سورية دائنين للرومان. أما قبائل بلاد العرب الوسطى والحجاز الذين ساد عليهم التابعة وهم ملوك بني حمير سيادة وقتية فكانت تعتبر أنها تحت سيادة ملوك الفرس ولكنها في الحقيقة كانت متمتعة بالإستقلال التام الذي لا غبار عليه».

ثم قال (جول لا بوم): «ولم يكن العرب أحسن استعدادًا من غيرهم لقبول أي دين من الأديان قال المسيو (دوزي) في كتابه تاريخ «عرب إسبانيا»: كان يوجد على عهد محمد (صلى الله عليه وسلم) في بلاد العرب ثلاث ديانات: الموسوية والعيسوية والوثنية، فكان اليهود من بين أتباع هذه الأديان أشد الناس تمسكًا بدينهم وأكثرهم حقدًا على مخالفي ملتهم، نعم يندر أن تصادف اضطهادات دينية في تاريخ العرب الأقدمين ولكن ما وجد فمنسرب إلى اليهود وحدهم أما النصرانية فلم يكن لها إتباع كثيرون، وكان المتمذهبون بها لا يعرفونها إلا معرفة سطحية... وكانت هذه الديانة تحتوي على كثير من الخوارق والأسرار بحيث يعز أن تسود على شعب حسي كثير الاستهزاء. أما الوثنيون الذين كانوا هم السواد الأعظم من الأمة الذين كان لكل قبيلة بل أسرة منهم آلهة خاصة والذين كانوا يصدقون بوجود الله تعالى ويعتبرون تلك الآلهة شفعاءهم لديه فقد كانوا يحترمون كهانهم وأصنامهم بعض الاحترام. ولكنهم مع ذلك كانوا يقتلون الكهان متى لم يتحقق إخبارهم بالمغيبات أو لو عولوا على فضحهم عند الأصنام إن قربوا لها ظبية بعد أن نذروا لها نعجة وكان من العرب من كان

يعبد الكواكب وخصوصًا الشمس. فكنانة كانت تدين للقمر وللدبران وبنو لخم وجرهم كانوا يسجدون للمشترى وكان الأطفال من بني عقد يدينون لعطارد وبنوطي يدعون سهيلاً وكان بنو قيس عيلان يتوجهون للشعري اليمانية وكان عليهم بما وراء الطبيعة على نسبة أفكارهم الدينية. قال (كوسان دوبر سوفال) في كتابه تاريخ العرب: «كان منهم من يعتقد بفناء الإنسان إذا خلعته المنون من هذا العالم ومنهم من كان يعتقد بالنشور في حياة بعد هذه الحياة. فكان هؤلاء الأخرون إذا مات أحد أقربائهم يذبحون على قبره ناقة أو يربطونها ثم يدعونها تموت جوعًا معتقدين أن الروح لما تنفصل من الجسد تتشكل بهيئة طير يسمونه الهامة أو الصدى وهي نوع من البوم لا تبرح تطير بجانب قبر الميت نائحة ساجعة تأتيه بأخبار أولاده فإذا كان الفقيد قتيلاً تصيح صداه قائلة «أسقوني» ولا تزال تردد هذه اللفظة حتى ينتقم له أهله من قاتله بسفك دمه».

قال المسيو لابوم بعد إيراده هاتين الجملتين عن الأستاذين السابقين «وكانت طباع العرب وأخلاقهم لا تدل الناظر إليها إلا على أنهم شعب لم يكادوا يجوزون العقبة الأولى من عقبات الاجتماع لو لم تكن الأسرة عندهم بل القبيلة أيضًا – وهي نقطة تلفت النظر – تهتم اهتمامًا عظيمًا بحفظ سلسلة نسبها، ولو لم يكن – وهو أمر أغرب من سابقه – إدراكهم للقوانين وسعة لغتهم من جهة أخرى داعيًا إلى الالتفات بنوع أخص». ثم قال مباشرة «قال المؤلف المحقق الذي قتبسنا منه أكثر هذه التفصيلات المتقطعة: كان الغرب مفر مين بشرب الراح».

«ويوجد من الشعر ما يدل على أنهم كانوا يفرحون ويعجبون به وبلعب الميسر وكان من عوائدهم أن الرجل له أن يتزوج من النساء بقدر ما تسمح له به بوسائله المعيشية. وكان له أن يطلقهن متى شاء هواه وكانت الأرملة تعتبر من ضمن ميراث زوجها، ومن هنا نشأت تلك الإرتباطات الزوجية بين أولاد الزوج ونساء الأب وقد حرم ذلك الإسلام وعده زواجًا ممقوتًا وكان هنالك عادة أفظع من كل ما مر وأشد معارضة للطبيعة وهي وأد الأهل لبناتهم. (أي دفنهم أحياء) ».

(هذا كله لا يشير إلى أن العرب لم يكن فيهم أي جرثومة خلقية صالحة يمكن تقويمها وتهذيبها، فقد كانوا يحبون الحرية حبًا جمًا ويمارسون فعائل الكرم وبذل القرى «الأفراد الذين كانوا تابعين لأمم أرقى من الأمة العربية والذين كانوا مبعثرين هنا وهناك من جزيرة العرب كانوا قليلي العدد جدًا ولا يظهر أنهم كلفوا أنفسهم بوظيفة الدعوة إلى مللهم فاليهود الذين كانوا متشبعين بالأثرة الشعبية على مثال الصينيين واليابانيين والمصريين لا يرى منهم لليوم خاصية التأثير على غيرهم إلا بالخضوع لقوانين الأمة التي يشتغلون تحت ظل حمايتها بالأمور المالية، ولئن شوهد أنهم أدخلوا إلى ملتهم بعض العرب فلم يكن ذلك إلا نتيجة بسيطة لاشتراكهم في الأساطير التاريخية، وهو أشتراك يدل على قرابة قريبة بين الأمتين. تلك القرابة يستدل عليها بتساويهم في حب الكسب وتأزيهم في الاستعداد لعدم الأنفة من سلوك أي طريق من الحيل والمكر لنيل كسب أو حطام ولا ينتظر أن يكون من نتيجة الاجتماع بهذه الاعتبارات أدنى ترق أدبي، أما

المسيحيون فكانوا يفدون شيئًا فشيئًا إلى بلاد العرب هربًا من الاضطهادات الدينية التي كانت في مملكة الرومانيين ولكن لم يكن في حالهم نور يستلفت البصر تألقه، وفي حالة مسيحي الحبشة اليوم نموذج لذلك، فإنه لا يمكن أن يتحلى الإنسان بمدركات العقائد السامية من دين بمجرد التسليم بنص تلك العقائد.

«وفي عهد هذه الأحوال الحالكة وفي وسط هذا الجيل الشديد الوطأة ولد محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) في ٢٩ أغسطس سنة ٥٧٠» انتهى.

من هذا البيان يرى القارئ أن العالم الإنساني كان بحاجة إلى حادث جلل يزعج الناس عما كانوا فيه ويضطرهم إلى النظر والتفكير في أمر الخروج من المأزق الذي تورطوا به، ولله في خلقه سنن لا تتبدل ولا تتحول، فلا يتقادم العهد على دين، ويجمد منه الناس على شكل يمنع ترقيهم حتى يبعث إليهم ما يلفتهم إلى النظر، وينبههم إلى العبر ليجددوا مارث من تقاليدهم وفسد من أحوالهم، وقد جاء الإسلام فأحدث هذه النتيجة المطلوبة بما أقام من الدول وأسقط من الممالك، وأصل من الأصول، وهدم من التقاليد وناهيك به من انقلاب زعزع أركان دولتي الرومان والفرس وهما دولتا العالم إذ ذاك في أعظم قارتيه آسيا وأوروبا وقد أستتبع تزعزع أركانهما ضعفًا سري في مجموع تقاليدهما الرثة فتخلصت أمم من نير استبدادهما وتهيأ ما بقي منها للدخول في أدوار جديدة من الحياة وتلا ذلك كله ما تراه اليوم من النهضة المستمرة في عالمي العلم والعمل.

ما هي الأصول الجديدة التي حملها الإسلام للأمم وتغلب بها على جميع الأصول الموجودة لذلك العهد؟

الأصول العلمية والإعتقادية تتنازع الحياة كما تتنازعها الأمم فيغلب الأكمل منها ما عداه وبيده ويستولى على العقول والأرواح دونه ولا يزال سائدًا حتى يأتي ما هو أكمل منه فيتغلب عليه كما تغلب هو على ما سبقه وهلم جرأ. هذه سنة الله في الأمم من يوم وجودها إلى اليوم.

نعم، قد يتغلب الباطل على الحق أحيانًا ولكنه لا يتغلب عليه إلا إذا كان الحق قد ألبس لبوس الباطل وصار بما شيب به من الأضاليل أشد ضررًا من الباطل نفسه. أما ما دام الحق بديباجته الخاصة به لم تشبه شوائب الأضاليل فلا سبيل لأي باطل عليه مهما كان حوله وبطشه.

فإذا قلنا جاء الإسلام فتغلب بأصوله على جميع الأصول التي كانت قائمة على عهده فمعنى ذلك أن أصوله كانت أكمل من تلك الأصول القديمة وأصلح للأمم منها.

كانت في العالم مدنيات قائمة قبل مجيء الإسلام وعلى عهده أجملها وأكملها كانت المدنية الرومانية ناهيك أنها تغلبت بها على دول الأرض فلم تبق فيها أمة تنازعها السلطان إلا دولة الفرس في آسيا وقد يتلو الناس تاريخ الرومان فيرون حروبًا تشب وملوكًا تتولى، وقوانين تسن، وأصولًا تدعم وربما أكبر جهلة المؤرخين هذا الأمر وعدوه مما يصل إلى حد الخوارق ولكن لأهل العلم نظرًا غير نظر الجاهلين فإن تلك المدنية الرومانية على ما ولدت من الأصول والقوانين ومصرت من الأمصار وأقامت من الآثار

كانت مطبوعة بطابع الوحشية وكانت في أكمل أدوارها بحاجة إلى التعديل والتقويم بل إلى قارعة سماوية تحل بها فتقلبها رأسًا على عقب.

جاء في دائرة معارف لاروس ما ترجمته:

«ماذا كانت نظامات الرومان على وجه الأجمال كانت عين الوحشية والقسوة مرتبة في صور قوانين. أما من جهة فضائل روما مثل الشجاعة والمكر والنصر والنظام والإخلاص المطلق للجماعة فهي بعينها فضائل قطاع الطرق واللصوص أما وطنيتها فكانت لابسة لبوس الوحشية فكان لا يرى فيها إلا شرها مفرطًا وحقدًا على الأجنبي وضياعًا لعاطفة الشفقة الإنسانية. أما العظمة في روما والفضيلة فيها فكانت عبارة عن أعمال السوط والسيف في العالم والحكم على أسرى الحروب بالتعذيب أو بالأسر وعلى الأطفال والشيوخ بجر عربات النصر» أنتهى.

نقول إذا كان هذا شأن الرومان في نظر العلم فشأن الفرس لا يحتاج لبيان فقد كانت القسوة والإستبداد الحكومي وتأله الأكاسرة وغطرسة القادة فوق ما يتصوره العقل، فإن كان الإسلام قد تغلب على الرومانيين والفارسيين فإنه لم يغلبهم بقوة سلاحه ونظام جنوده، لأن السلاح والنظامات الحربية كانت من خصوصيات تلك الأمم، ولكنه غلبهم بسلامة أصوله، وأصالة تعاليمه. فماذا كانت تلك الأصول القديمة وما هي هاتيك الأصول الإسلامية وكيف تغلبت الثانية على الأولى وأنتهي الأمر بأن قادت العقول والأرواح معًا؟

الأصل الإسلامي الأول: التخليص بين الإنسان وخالقه

كان الرجل من أهل الملل السابقة تحت وصاية الكهنة حتى في خطرات نفسه وهو أجسها فلم يكن ليبرم أمرًا أو لينقضه في شؤونه الخاصة أو العامة إلا بإقرار رجال الدين عليه. ولو وقف الأمر عند هذا الحد لكان الحال أشبه بتغلب طائفة على أخرى في الأمور الحيوية، ولكن الأمر المزعج أنهم فصلوا ما بين الإنسان ومبدعه وأقاموا أنفسهم وسطاء بينهما فما كفى الرجل أنه لا يستطيع أن يبيع أو يرهن أو يتعاقد أو يموت إلا بحضور أحدهم حتى حرموه أن يدعو ربه أو يتوب إليه من ذنبه إلا بوساطتهم. فكان الرجل إذا أراد الزلفي من الله رشاهم وملأ أيديهم بالنضار فيؤذن له أن يتصل من مولاه بسبب، وأن ضن عليهم وقبض يده عنهم أقصوه عن تلك الحضرة وأوهموه أنهم حبسوا عنه رحمة ربه.

يمثل هذه الإيهامات تغلب رجال الدين على عقول الأمم أصبحت في أيديهم كالطفل في يد أمه وناهيك بما يستتبع هذه العبودية من وقوف حركة الأفكار، ونضوب معين العقول وتعطل حياة الشعور فلا جرم عاشت الأمم دهورًا طويلة وهي في حالة جمود شامل تحت آصار هذه الوصاية الثقيلة حتى جاء الإسلام بهذا الأصل الأول– وهو التخليص بين الإنسان وخالقه، فقرر أن الله قريب من عباده يسمعهم أن نادوه ويستجيب لهم أن دعوه، فقال تعالى: «وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي، بل قرر الإسلام أن الله أقرب الأشياء إلى عباده قال تعالى: وهو أقرب إليهم من حبل الوريد»

ولم يشترط في قبول عبادتهم أن يرأسها شخص من طائفة تنحل نفسها صفة التوسط بين الناس وخالقهم فلكل إنسان أن يؤدي صلاته ونسكه بنفسه، أما الصلوات الجامعة كصلاة الجمعة والعيدين والجماعة فالذي يرأسها الأمير نفسه أو من ينيبه عنه ولا يشترط في النائب والأمير أن يكون من طائفة خاصة بل يجزيء في النهاية كل رجل من المسلمين ولو كان صانعًا أو تاجرًا أو زارعًا.

بهذا الأصل الإسلامي خلص ما بين الإنسان وربه فلم يعد تابعًا لأحد من إخوانه في البشرية ولم ير لرجل مثله فضلًا عليه من وجهة روحانية. فكان هذا الأصل أول حجر وضعه الإسلام في أساس الحرية الإنسانية الصحيحة.

الأصل الإسلامي الثاني: تقرير المساواة العامة

كان الناس قبل الإسلام ينقسمون إلى ثلاثة أقسام قسم رجال الدين وقسم رجال الحكومة ومن ألتحق بهم من الشرطة والجنود وقسم العامة. فكان رجال الدين هم الأعلون مكانًا، والأرفعون مقامًا، وكان رجال الحكومة يلونهم في الدرجة وكانت الطائفتان معًا عاملتين على تسخير العامة لمصالحهما وابتزاز ثروتها واجتياح ثمراتها لسد حاجة شهواتهما وتوفير لذاتهما الأولى باسم الدين وخدمة منزله والثانية باسم السلطة الدنيوية، فلما جاء الإسلام قرر أن الناس كلهم سواء أبوهم آدم وأمهم حواء. لا فضل لأبيض على أسود ولا لعربي على أعجمي إلا بالتقوى أو عمل صالح فقال تعالى: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا أن أكرمكم عند الله أتقاكم»

بهذه المساواة محيت السلطة الروحية التي طالما سامت الشعوب الخسف وألبستهم لباس الذل. ولم يعد للكبراء والقادة ما كان لهم من مزاعم في إحتكار السلطة وتوريثها آلهم وذويهم بغير حق، وصار ميزان التمايز الأعمال الصالحة، والفضائل الحقة، حتى أضطر أول خليفة ولي المسلمين أن يخطب الناس فيقول: «يا أيها الناس قد وليتكم ولست بخيركم ولقد وددت أن واحدًا منكم قد كفاني هذا الأمر فلو وجدتم في أعوجاجًا فقوموه»

فكان هذا الأصل ثاني حجر وضعه الإسلام في بناء صرح سلطة الأمه أرتفعت عليه الشعوب إلى أعلى منصات الشعور بالكرامة الإجتماعية، وبنت عليه ما قدر لها من معارج الصعود إلى مكانات الرفعة القومية.

الأصل الاسلامي الثالث: تقرير مبدأ الشورى في الحكومة

كان الناس قبل الإسلام يرون أنفسهم قد خلقوا؛ لأن يطيعوا طائفة الحاكمين طاعة عمياء، ليس لهم من أمرهم حق النظر في سلام ولا حرب أو في إبرام ونقض، فكانوا يسيرون كما تسير الأنعام السائمة إلى حيث يريدون ولا يريدون. وما تقرأه في تواريخ الرومان واليونان من تكوين المجالس الشوربة وتأليف النظامات الدستورية لم يكن في حقيقته إلا نوعًا من الاستبداد فإن السلطة فيها كانت لا تزال وقفًا على أفراد من الأقوياء، أما عامة الشعوب فكانوا على ما كانوا عليه قبل قيام تلك المجالس والجمهوريات لاحق لهم في تقويم عوج الحاكمين، وهل كانت المجالس الشورية في أتينا وروما إلا من حظ طائفة الإشراف دون سواهم فتارة كانوا يستبدون بالناس جميعًا وطورًا يكونون آلة في يد الحاكم الفرد يسوق العامة بهم إلى حيث أراد؟

فلما جاء الإسلام قلب هذا النظام رأسًا على عقب وجعل لكل فرد حق الرقابة على الحكومة وإبداء الرأي في الشئون العامة فقال تعالى: «وأمرهم شورى بينهم» وقال تعالى «وشاورهم في الأمر». وزاد فجعل الدين النصيحة قال عليه الصلاة والسلام «الدين النصيحة. قالوا لمن يا رسول الله؟ قال لله ولرسوله وللمؤمنين عامتهم وخاصتهم» وأبعد مرمى هذا الأصل فقرر أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الواجبات على كل آخذيه كبيرًا كان أو حقيرًا حتى أن الله لما سرد بعض حوادث الأمم الغابرة وذكر ما أصابهم من القوارع والمحن علل ذلك بقوله «إنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يعملون، وقال عليه الصلاة والسلام: «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم فتنًا كقطع الليل المظلم تدع الحليم حيرانًا» وقال عليه الصلاة والسلام «من رأى منكم المنكر فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان».

بهذا الأصل علم كل مسلم أن له حظًا من إدارة شؤونه العامة فلم يعد يعتبر نفسه آلة في يد الرؤساء، ولا جسمًا مهملًا في بناء الاجتماع، وناهيك بأمة ينبث مثل هذا الشعور العالي في جميع آحادها، وتنتشر آثاره في حركاتها وسكناتها.

الأصل الإسلامي الرابع: تعليق السعادة والشقاوة في الحياة الأخرى على الأعمال والصفات الذاتية، لا على الشفاعات والقرابات.

كان الناس قبل الإسلام يعتقدون أن أمر العالم الروحاني بيد رؤساء الدين لأرادتهم فيه، فهم المسعدون والمشقون، بأيديهم الإثابة بالجنان،

والحور والولدان، أو العقاب بالنيران، والتعذيب والحرمان، فكان من لا يمت إليهم بنسب، أو يتصل منهم بسبب يعتبر نفسه فاقدًا مزية الحظوة بالحياة الأبدية فيعمل على أستنزال رضائهم جهده بالمال تارة، والطاعة العمياء أخرى حتى مرنت الشعوب بهذه الوساوس وصارت الذلة ألصق بها من أقرب غرائزها ففقدت نخوة الأحياء وعزتها، وأصبح الآخذون بتلك الأديان كالآلات الصماء في أيدي الرؤساء يرمون بهم حيث يشاؤون من متاهات الوجود. ولا تسأل عما يلحق نفوسهم من الصفات، ويلم بمواهبهم من الإنحطاطات من جراء مثل هذه العقائد التي تريهم أن الظلم والمحاباة من أخص صفات الحياة. فهل يستقيم مع مثل هذه الحال ميزان الأخلاق وينتظم شأن المعاملات؟ وهل يكون لمثل هذه الجماهير من الأمم حظ من وجود عال في هذا العالم يرفعون به شأن الإنسانية. أو يقومون فيه بخلافة الله في أرضه؟

جاء الإسلام فقرر أن مناط السعادة في الدنيا والآخرة الأعمال الشخصية وإن القرابات والشفاعات وجميع أسباب الزلفي من الرؤساء لا تغني عن الإنسان شيئًا. فقال تعالى «كل نفس بما كسبت رهينة» وقال تعالى «ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى» وقال عن الذين لا يعملون صالحًا «فما لهم من شافعين» «فما تنفعهم شفاعة الشافعين» وقال عليه الصلاة والسلام لأبنته فاطمة الزهراء (أعملي يا فاطمة فإني لا أغني عنك من الله شيئًا) وقد ورد في القرآن أن نوحًا شفع لأبنه فلم يجبه الله لأن أبنه كان غير صالح. قال تعالى في سياق تلك الحكاية «ونادى نوح

ربه فقال رب أن أبني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين، قال يا نوح أنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح».

بهذا الأصل أجهز الإسلام على ما كان قد بقي من سلطة الرؤساء الروحانيين وزاد النفوس نزوعًا إلى الخلاص من أسر المسيطرين. ولا تسأل عما أستتبع هذا المبدأ من أدراك الإنسان لمبلغ العهدة الملقاة على عاتقه، ولحقيقة مركزه في مجتمعه وعالمه، فكيف لا ينتج من هذا الشعور أصل الاعتماد على الذات، والثقة بالقوى النفسية والاعتقاد بأنها كافية في إيصال الإنسان لأرقى ما يتوق إليه من درجات السعادة المرجوة في هذه الحياة وما بعدها.

الأصل الإسلامي الخامس: الإعتراف بحقوق العقل والعلم

كان الناس قبل الإسلام يعتقدون أن الدين والعقل نقيضان لا يجتمعان وعدوان لا يتفقان، لما كانوا يرونه من الخلاف الشديد بين عقائدهم وعقولهم، وقد غلوا حتى زعموا أن العقل أحط من أن يدرك العقائد في جلالها وسموها، وزادهم رؤساء الدين ضلالًا في هذا الزعم بما كانوا يبثونه في أذهانهم منن.

إن حقائق الدين يجب أن تكون أرفع من مدركات العقل؛ لأنها إنما تتنزل عليهم من عالم روحاني يختلف في جميع شؤونه عن عالمهم الحسي وغاب عن تلك الأمم إنه لو صح هذا الزعم لصحت جميع الخرافات التي يدعي أصحابها بأنها أديان منزلة ولما أستطاع إنسان أن يميز بين غث وسمين مما يقدم إليه من مختلف المدركات ومتناقض المقالات.

جاء في دائرة معارف لاروس من باب الأزراء برؤساء الدين الذين يوهمون الناس بإنحطاط العقل عن أدراك الأمور الدينية ما ترجمته:

«إن قلنا الإحسان يقتضي أعتقاد الأشياء المعقولة قالوا لا لا. ثم يسعون في تذليل هذا العقل الإنساني الذي يدعي لنفسه حق التمييز بين الخير والشر وبين العدل والظلم، حتى إذا أعموا بين العقل وغشوا باصرة البصيرة لدرجة بها ترى الكرامات بأنها أمور عادية وتظن الأبيض أسود وتعد الرذيلة فضيلة يعود الدين فيقول أطيعوا. نطيع من؟ هل نطيع العقل؟ الواجبات الطبيعية، العواطف القلبية. النواميس الحقيقية المفيدة للإنسانية والتي تنتج من تلك القواعد نفسها؟ لا ولكن أطع وأنت أعمى للذي يحكم باسم الله حتى ولو أمرك بقتل مليكك أو أبيك أو بأحداث مقتلة عامة فإنه ليس لك لا روح ولا ضمير إنما أنت ميت في الله» أنتهى.

جاء الإسلام فقرر أن العقل مناط التكليف ومحك التمييز بين الحق والباطل وأنه قسطاس الحكم، وفيصل التفرقة بين المشتبهات، فأكثر القرآن من ذكر العقل في مثل قوله (أفلا تعقلون) (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) وقال عليه الصلاة والسلام (الدين هو العقل ولا دين لمن لا عقل له) وقال (يا أيها الناس أعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل تعرفوا ما أمرتم به وما نهيتم عنه، وأعلموا أنه ينجدكم عند ربكم) قال عليه الصلاة والسلام: (لا يعجبكم إسلام رجل حتى تنظروا ماذا عقده عقله) وأثنى قوم على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بالغوا فقال لهم: كيف

عقل الرجل؟ فقالوا نخبرك عن إجتهاده في العبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله؟ فقال «إن الأحمق يصيب بجهله أكثر من فجور الفاجر وإنما يرتفع العباد غدًا في الدرجات الزلفي من ربهم على قدر عقولهم».

لم يقف الإسلام عند هذا الحد في رفع قيمة العقل بل تحله سلطته المطلقة في الحكم على العقائد فطالب كل معتقد بالدليل على حقيقة معتقدة، حتى ذهب جمهور من العلماء أن إيمان المقلد غير مقبول قال تعالى من باب المطالبة بالدليل: (ومن يدع مع الله إلهًا آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه) (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين).

وقال من باب النعي على الآخذين بالظنون والأوهام: (وما يتبع أكثرهم إلا ظنًا أن الظن لا يغي من الحق شيئًا إن الله عليم بما يفعلون) وقال سبحانه وتعالى: (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله أن يتبعون إلا الظن وأن هم ألا يخرصون).

ثم بين خطر الإعتقاد بدون عقل ولا علم وكشف عن عظم العهدة في ذلك فقال تعالى: «ولا تقف ما ليس لك به علم أن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً).

بهذا الأصل تحررت العقول من أسر العقائد الباطلة وظهر الدين لأول مرة مؤاخيًا للعقل، معتضدًا به في تقرير المعتقدات، وتحديد المعاملات. فكان هذا فاتحة عصر جديد دخل به الدين في مجال المقررات العلمية بعد أن كان مطروحًا في زوايا التوليدات الخيالية، ولا تسل عما أستتبع هذا الأصل من رقي الأمم في معارج الفهم، وسموها في مراقي الفقه

ووقوفها قوية عالية الرأس أمام أهل الخداع والمطامع من المتأولين للنصوص الدينية الذين يرمون لقيادة العامة بأهوائها، وتسخيرها بأوهامها.

قال لاروس في دائرة معارفه: «إذا بحثنا بدون غرض ولا وهم عن سبب الرقي الذي حدث في العالم المادي والفكري والخلفي منذ طفولة الجماعات البشرية إلى أيامنا هذه فلا نراه إلا خلاص العقل من الضغط عليه»

وقال لاروس أيضًا في دائرة معارفه: «من لدن زمن الإصلاح لغاية الثورة الفرنسية أستمرت المجالدات بحظوظ مختلفة بين محرري العقل وبين الضاغطين عليه من القدم ولأجل الأعراض الكلي عن أساطير الماضي ورسم خطة جديدة للمستقل أخذت الثورة الفرنسية في ترميم ما تهدم من أركان الجماعة وصار تعليم النشء من أهم أشتغالاتها» أنتهى.

الأصل الاسلامي السادس: المؤاخاة بين الدين والمدنية

الإنسان بما فطر عليه من حب الذات مدفوع لأن يحصل لنفسه أقصى ما يستطيعه من كمال جسداني ولذة بدنية ويدفع عنها ما يمكنه دفعه من مبيدات الوجود ومهلكاته ثم إن ما متع به من القوى المعنوية البعيدة المدى يمكنه من الوصول لأكثر رغائبه ما دام يعمل للحصول عليها بالوسائل المقررة.

على هذا فطر الإنسان وقد حقق لنفسه بعض هذه الأماني في أزمة مختلفة ولكن قادة الأديان لأجل أن يقبضوا على نواصي الأمم ويسخروها لأهوائهم خشوا أن تكون السعادة الجسدية مغرية للإنسان إلى التملص من قيودهم والتخلص من سطوتهم. فيضيعوا مكاناتهم الموهومة فمزجوا بتعاليم

الدين ما ليس منها من الدعوة إلى الذل والاستكانة وحببوا إليهم الزهد والتقشف. نعم، إن الله أرسل بعض الرسل بالدعوة إلى الزهد المطلق في الدنيا ونعيمها ولكن كان ذلك لأسباب خاصة في أحوال تقتضيها لا لأن الدين بطبيعته عدو للمنافع المادية، وخصم للسعادة الجسدية.

تمسكت أمم بالدين المشوب بتلك التعاليم فانحط أهله إلى أسفل الدركات وصاروا أضعف الناس في ميدان التغالب الحيوي ووقر في النفوس أن الدين ينافي كل عمل يؤدي إلى النعيم البدني فنجحت الشبه والشكوك وتناقضت تعاليمه والفطرة البشرية، وتمسك قادته بأصولهم فأخذوا يعملون على إبادة كل نزعة تبدو من الأمم لطلب الرقي وأصبح الدين في أيديهم آلة للتعذيب والقهر وكانت الحرب سجالاً بينهم وبين الدعاة المدنية حتى تم لهم الفوز المطلق فنضبت موارد العلم ودرست أعلامه وأمسى العالم في ظلام حالك من الجهل والعماية.

ظهر الإسلام فقرر أن الدين ليس عدوًا للمدينة بل هو دليلها الصادق ومرشدها الخبير فقال تعالى: (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق) وقال تعالى: (ربنا آتنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة) وقال تعالى (وقيل للذين أتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرًا للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين) وقال تعالى: (ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك).

ولما كان العامل في إيجاد المدنية المادية هو، العلم قرر الإسلام طلبه على كل مسلم ومسلمة فقال تعالى: (وقل رب زدني علمًا) وقال: (وما

أوتيتم من العلم إلا قليلًا) وقال: (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وقال عليه الصلاة والسلام: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» وقال: «من علم علمًا فكتمه ألجمه الله بلجام من نار»»

الأصل الإسلامي السابع: تنبيه الإنسان إلى أن للوجود الإنساني سننًا لا تتبدل

كان الناس قبل الإسلام يتخيلون أن الجماعات البشرية كقطعان السوائم تصرفها إرادة رعاتها وتقودها إلى حيث يتفق مع مصلحتها، وما كانت أدوار التاريخ في نظرهم إلا صنع الرؤساء والقادة يستطيعون تغييرها وتبديلها على ما تقتضيه سياستهم فكان نظرهم يتجه إلى أولئك الرؤساء كلما لاح لهم عارض مصلحة، واستشرفوا بارق أمل، ثقة منهم أن إرادة سادتهم كافية في تغيير كل حال أن هموا به وأرادوه، وفي هذه العقيدة من زيادة توريطهم في العبودية لهم ما فيه، فلما جاء الإسلام قرر أن للوجود الإنساني سننًا لا تتحول ولا تتبدل لا تزال عاملة على مقتضى نظامها المقرر لها حتى تبلغ الغاية مما ترمي إليه. فالجماعات البشرية في مجموعها كائنات حية لها أدوار تأتي عليها وحالات تدخل فيها لكل دور منها شؤون ومقتضيات ولكل حال لوازم وعلاقات لا بد من ظهورها جميعًا كل في حينه المقرر له من سن الإجتماع وصفات الجماعات.

هذا الخلاف في النظر بين القدماء والإسلام ذو شأن خطير في باب الحقائق العلمية، وتأثير في التعاليم الفلسفية. فالقدماء كانوا ينظرون للقادة نظرهم للآلهة المتحكمين في إسعادهم وإشفائهم، إرشادهم وإضلالهم فكان

هذا الضلال في العقيدة مكسبًا وظائف أولئك القادة عظمًا وجلالًا، ونفوس تلك الشعوب حطة وإذلالًا ولكن الإسلام يقرر أن الأمم وفي مقدمتها ملوكها منفعلون جميعًا لقوى متسلطة عليهم تابعة لناموس عام ينظم سيرها ويرتب افاعيلها على حسب أحوالهم وبقدر استعدادهم وقابليتهم فهو ينظر في أمر إصلاح الأحوال وترقية النفوس لا إلى القادة المتسلطين لأنه لا يرى أن لهم حولاً في أقل تغيير بل أنهم في حقيقتهم أثر من آثار الحال التي فيها الأمم. بل ينظر إلى ذات الأمم فينبهها لواجباتها ويزعجها إلى تلس منجاتها بقواها الذاتية وإرادتها الشخصية.

القرآن أكثر من الزجر والوعظ والترغيب والترهيب فلم يوجه الكلام في واحدة للكبراء والقادة ولكنه وجهه للناس كافة مثل قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارًا) و(يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم) وما ذكر أولئك السادة إلا في معرض النعي على الأمم في إستسلامها لضلال قادتها وأهواء كبرائها فقال: (وقالوا ربنا إننا أطعنا ساداتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) بل إنه عدهم من آثار حيادها عن الطريق المستقيم كأنهم من كسب أعمالها، و ثمرة ضلالها فقال (كذلك نولي بعض الظالمين بعضًا).

ثم إنه لفت الناس لإستخدام قواهم المودعة فيهم إذا أرادوا تغيير أحوالهم، وتحسين شؤونهم فقال تعالى: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم).

لا جرم أن هذا الأصل أقوى باعث لهداية الأمم إلى الطرق الحقة في حصولها على سعادتها وعروجها إلى كمالها. فإن الأمم متى عرفت أن بيدها

سعادتها وشقاءها وأن أحوالها المختلفة من ثمرة أعمالها لم تعد تعتمد في تبديل شؤونها على غير جهادها وفي تكميل وجودها على سوى قواها الكامنة فيها.

الأمم المتشبعة بمثل هذا الأصل الإجتماعي يستحيل عليها الإستخذاء لعظيم أو الإعتماد على فرد مهما بلغ شأنه من شرف المولدو كرامة المحتد وناهيك بهذه النزعة سائقًا إلى الحرية الصحيحة والديموقراطية الحقة.

من الآيات الدالة على ما ذكرناه من أن الاسلام قرر أن للوجود الإنسائى سننًا لا تتبدل قوله تعالى (سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً) وقوله تعالى: (قل سيروا في الأرض فأنظروا كيف كان عاقبة المكذبين).

الأصل الإسلامي السابع: لفت الإنسان لنظام الطبيعة وتوجيه نظره لأسرارها الخفية

حرم رؤساء الدين على الأمم النظر في الكون إلا فيما يمس العبادة ويتعلق بأداء واجباتها فرصد الآشوريون الأفلاك لمعرفة مواقيت العبادة. وبرع المصريون الأقدمون في صناعة النقش والتصوير والنحت والبناء بسائق الدين أيضًا لتصوير الآلهة وإقامة النصب لها وبناء الأهرام عليها وعلى الموتى وليس فيما بين أيدينا دين يدعو الإنسان للنظر في الطبيعة لدرس أسرارها واستكناه خافياتها ليستخدم ذلك في تحسين أحواله وترقية وجوده إلا الإسلام، فإنه لما جعل غرضه ترقية الإنسان. وإبراز قواه الكامنة فيه حرضه على النظر في الكون فقال: (قل أنظروا ماذا في

السموات والأرض) وقال: (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت) وقال: (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات الأولي الألباب).

لا جرم أن النظر في الكون يستتبع أستكناه نظامه، وإستكشاف أسراره ولا يخفي ما في ذلك من الأثر المبين في إقامة الأمم على النظام. وتدريبها على محاكاة صنائع الله في الإبداع والأحكام وقد عملت الأمة الإسلامية الأولى بهذا الأصل فبرع منها ألوف من العلماء جعلوا لعلم الطبيعة شأنًا يذكر في تاريخهم. ثم إنهم يتخذوه علمًا كلاميًا نظريًا بل جعلوه علمًا عمليًا فأستخدموه في إبلاغ مدنيتهم أوجًا لم تصل إليه أمة قبلهم ولا يزال الأوربيون يترجمون من كتبهم ما يقفهم على أن العرب بلغوا من العلوم الطبيعية شأوا لا يزال مداه مجهولاً.

الأصل الإسلامي الثامن: الإعتراف بحقوق ميل الانسان وعواطفه

في الإنسان ميول مختلفة وعواطف جمة وكلها فيه غريزية طبيعية أودعتها فطرته لتكمله في شخصه ونوعه وتوصله بما تنشئه له من الحاجات والعاديات إلى أقصى ما قدر له من المدنية، فالإنسان يميل لأجل حفظ شخصه للغذاء والكساء ولحفظ نوعه للزواج والإجتماع ولكنه بما ركب فيه من القوى المرقية لا يقف من هذه الحاجات عند حد الضرورة فيميل لأن يفتن في نوع غذائه ولباسه ومأواه ولا يزال على تلك الحال وهو في كل إندفاعاته هذه يحصل من ورائها علمًا جديدًا يبعثه لأستكناه مجهول، وإكتشاف سر، وربما كان بعض أفتنانه في الوفاء لميوله هذه جالبًا عليه من

مصائب تجتاح كثيرًا من آحاده ولكن من يبقى منهم يستفيد منها رقيًا جديدًا لما يفتحه عليه الفكر من مجالات الحيل وباحات الوسائل.

على هذا فطر الإنسان ومن هنا نشأت مدنياته وعلومه وصنائعه وسيتأدى من هذا الطريق نفسه إلى كماله المنتظر الذي يعلو به عن مستوى الحيوان الأعجم.

كانت قبل الإسلام أديان تنزع إلى وقف تيار هذه الميول بتقرير صنوف الرياضات وأشكال الحرمان ومنها ماعدا الزواج دنسًا من الأدناس ونظر إليه نظرة للشر الضروري فكان هذا النزوع من تلك الأديان سببًا لتعطيل قوى النفس الإنسانية وصدها عن أستخدم جميع وسائلها ومنع بذلك ظهور آثارها البديعة في عالم الحس. فجاء الإسلام معترفًا بحقوق هذه الميول الطبيعية غير مطالب الإنسان إلا بخصلة واحدة وهي الاعتدال فيها على حد قوله تعالى: (كلوا وأشربوا ولا تسرفوا) حتى أنه لم يحرم عليه الدفاع عن نفسه بالقوة والتبسط في استعمار الأرض لعلمه بأن الحرب كانت لدى بعض الأمم من الحاجات التي لا غنى لها عنها وهي تحتاز دورًا من أدوار الاجتماع فطالب ذويه بالعدل فيها، وعدم الإيغال في إشباع عاطفة الانتقام فقرر أولًا ضرورة الدفاع بقوله: (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) ثم نص على وجوب الإنصاف فيها فقال تعالى: (ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين).

بهذا الأصل حفظ الإسلام لمتبعيه جميع صفات الأمم الحية المستاهلة للتدرج في مراقي الكمال البشري، ولو كان العرب الأولون أمروا بصدم

هذه الميول الطبيعية بالزهد والتقشف وحرمت عليهم جميع مقومات الاجتماع من مقابلة القوة بمثلها لما كان من أثره إلا تكوين جماعة من المتبتلة يعيشون ضعافًا ويموتون أسرى سواهم من المتغلبين، ولما قاموا بهذه الأعمال الجليلة من بناء مدنية فخمة وإقامة دولة عظيمة وحفظ ميراث العالم من العلم والحكمة ولا تنتهي أمرهم كما أنتهى أمر كل طائفة مستضعفة مستكينة.

أعتبر بعض الطاعنين في الإسلام إباحة الحرب والتنازع من العيوب التي يجب أن يخلص منها كل وحي إلهي وغاب عنه:

(أولًا) أن شريعة موسى كانت تبيح الحرب والتنازع على أشد درجاتهما حتى ورد في التوراة أن موسى كان إذا غلب الأمة اجتاح أهلها ولم يبق حتى على حيواناتها وشريعته مع هذا معتبرة من الوحي لدى أكثر الطاعنين على الإسلام من هذه الوجهة.

(ثانيًا) أن الحرب مظهر من مظاهر التنازع المعاشي وهذا التنازع لا يزال سنة إنسانية يسوق إليها فساد في بنية الاجتماع، فإذا حرمه الإسلام حرم ذويه الدفاع عن أنفسهم وبلادهم وقضى عليهم بالتلاشي والزوال. لأننا لا نزال نرى بأعيننا أن الأمم في نزاع مستمر وأن مدار الفوز فيه على القوى المسلحة وأن الحياة هي للحاصل على جميع أسباب الدفاع عن الحوزة.

الأصل الإسلامي التاسع: توحيد العالم في دائرة المعاملات

يلاحظ الناظر في الأديان السابقة على الإسلام أن الأثرية القومية ظاهرة في تعاليمها ظهورًا بينًا وكثير منها حرم التعدي على الآخذين بها

وأحله لمن عداهم من سائر الأمم. من هنا حدث التضاغن والتغابن بين أهل الممالك المختلفة وورث الناس هذه الأخلاق جيلًا بعد جيل حتى ليكاد أحدهم يفضل أن يرى الحيوانات الكاسرة ولا يرى وجه رجل يخالفه في معتقده.

لا جرم تأثرت المعاملات بين هذه الأمم المتحالفة في العقائد على نسبة قوة هذه التعاليم الصارة ومبلغ تأثيرها على أذهانهم فتعطلت المصالح المادية وكثرت الغارات الجائرة، ونزع بعضها لإبادة بعض لا لغرض سوى تطهير الأرض منها.

ولكن الإسلام لم يسلك هذه السنة بل رمى إلى توحيد العالم كله في دائرة المعاملات الحيوية تاركًا لكل أمة حريتها في إعتقاد ما تريده من العقائد. فقرر لمتبعيه من هذه الوجهة أصولاً فقال لهم أن إختلاف الأمم والنحل في الإعتقادات أمر يقتضيه نظام الكون وأنه مراد الله تعالى وأنه من المحال جمع الأمم على عقائد واحدة فقال تعالى (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم).

علم المسلمون بهذه الآية أن هذا الخلاف مراد الله تعالى لحكمة يعلمها هو وأن الأمم لا تزال عليه حتى يأتيها أمر ربك فلم تغل مراجل الأحقاد في صدورهم ولم تلتهب جذوة الأضغان في نفوسهم بل تركوا ما لله لله وعملوا قوله تعالى: (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ولم يظاهروا على إخراجكم أن تبروهم وتقسطوا إليهم).

أمر الله متبعي الإسلام بهذه الآية أن يبرروا ويقسطوا إلى الأجانب عن دينهم الذين لم يقاتلوهم من أجل ملتهم ولم يخرجوهم من ديارهم. ثم أيد ذلك بقوله تعالى بعد هذه الآية (إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون).

بهذه الآيات لم يجد المسلم في نفسه ما يجعله على الحقد على مخالفة في الدين مادام لم يقاتله ليفتنه عن دينه، بل إنه أمر بأن يعدل في معاملته وبأن يبره والبر فوق العدل لأنه يقتضي التفضل والإحسان.

وقد دل تاريخ المسلمين في جميع أدوارهم على تأصل هذه النزعة في نفوسهم فلم يرو عنهم أنهم أبادوا ملة من الملل لغرض ديني، أو اضطهدوا طائفة من الطوائف بقصد اعتقادي بل سمحوا لجميع محكوميهم بممارسة أديانهم وتعليمها لذويهم وكانوا يحترمون آحادهم وجماعاتهم احترام العشير للعشير ولم يمنعوا نواقيس الكنائس والبيع أن تدق بجانب منائر المساجد وزاد الإسلام هذه العلاقات بالسماح للمسلمين بمؤاكلة مخالفيهم ومجالستهم ومؤاساتهم في حزنهم ومشاطرتهم في فرحهم وكان النبي صلى الله عليه وسلم أسوة أمته في ذلك فقد روى عنه أنه نشر رداءه وأجلس عليه بعض زائريه من النصارى وثبت أنه كان راهنًا درعه عند بعض يهود المدينة في دين عليه ولم يخلص درعه إلا خلفاؤه بعد موته. وزاد الإسلام هذه العلاقات فأباح مصاهرتهم ولولا أنه خشي على النساء الفتنة لكان أباح أن تتزوج المسلمة من غير المسلم.

لا جرم نشأ المسلمون نشأتهم الأولى والدين أقوى حاكم على شعورهم فلم يشاهد منهم ما يعابون عليه من جهة التسامح مع مخالفيهم، ثم لما أنتشر فيهم العلم ونبغ منهم المؤلفون والباحثون لم تكابد هذه النزعة فيهم أدنى انحراف بل زادوها رونقًا بما قاموا به من حماية علماء الملل الأجنبية وما والوه عليهم من الإقبال والاجلال حتى صار أطباء الخلفاء والقادة منهم مثل بختيشوع طبيب الرشيد والمأمون وغيره بين نصارى وإسرائليين لا يعدون كثرة.

هذا الأصل الإسلامي يعتبر في ذاته أية على حقية هذا الدين فإن هذا التسامح الديني لا يكاد يعرفه العالم إلى اليوم وأن أوروبا الحالية على ما حصلته من علم ومدنية لا يزال يرى منها جنوح عن مثل هذا المبدأ الكريم في أحوال كثيرة.

الأصل الإسلامي العاشر: الاعتراف بناموس الترقي

ليس فيما بين أيدينا من الأديان التي سبقت الإسلام دين يرفع بالرقي الإنساني رأسًا أو يأبه بحصول الناس على ما ينفعهم في أمر حياتهم الدنيوية وكل ما فيها أنها علقت أمر الدين كله على حادثة تاريخية أو موت زعيمها على شكل من الأشكال فهي تنظر للوراء في جميع أوامرها ونواهيها بل طبيعتها تقتضي أن يكون الإنسان بقلبه وشعوره ومراميه عن أهل العصور الأولى، ولا بأس عليه بعد ذلك أن كان من حياته هذه في أخس دركات القسوة والمهانة.

لا جرم سادت هذه الأديان قرونًا فلا ولد العلم وتأيدت دولته زالت

من على سطح الأرض ولولا أوقاف محبوسة على قادتها لما وجدت لها ممثلاً في بلد متمدين اليوم، ولكن الإسلام خالف جميع هذه الأديان في اعترافه بناموس الترقي واعتباره الإنسان مسوقًا لغايات من المدنية بعيدة لم ينلها إلى اليوم. وهو لأجل تقرير هذا الأصل في أذهان متبعيه قطع كل علاقة بينهم وبين الأمم السابقة إلا من وجهة تاريخية فلم يعلق تعاليمه على حادثة ماضية، ولم يبين أصوله على أمر سبق الزمن الذي نزل فيه بل قال عن العلاقة الموجودة بيننا وبين الأمم السابقة: (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون).

قطع الإسلام هذه الآية وأمثالها كل علاقة لهذه الأمة بما قبلها من حيث العقائد وقرر أن لكل أمة ما تكسب لا تسأل سابقتها عن لاحقتها ولا لاحقتها عن سابقتها.

ولما كان ناموس الترقي في نفسه ليس له مظهر إلا تقدم الإنسان في باحات العلم ومن هذا التقدم العلمي ينشأ التقدم الأدبي والمادي بجميع أشكاله قرر الإسلام أم العلم الذي لدى الأمم لذلك العهد نزر قليل لا يوصل إلى إدراك كبريات المسائل ولا يحل معضلات الأمور فقال تعالى: (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) بعد أن قرر أن العلم الذي أوتوه قليل أراهم أن العلم دائم التجدد متواصل المدد فقال تعالى (وقل رب زدني علمًا).

هذا الأصل يعتبر اعترافًا صريحًا بناموس الترقي وقد حقق المسلمون مؤداه فإنهم لم يقصروا في طلب العلم في عصر من عصورهم بل هبوا هبه

رجل واحد فأخذوا كل ما رأوه من علم نافع وصناعة محكمة وجمعوا بين مظاهر مدنيات الفرس والرومان واليونان والهنود.

الأصل الإسلامي الحادي عشر: تقرير أن الدين شرع لخير الناس ومصلحته لا لتسخيره وإذلاله

غرس الإسلام في نفوس ذويه أنه إنما شرع لمصلحتهم، وأنزل لترقيتهم وما العبادات التي فرضها الله على عبادة، والسنن التي أمر بها نبيه إلا وسائل لفوائد روحانية تأتي من ورائها وليست هي ذاتها مقاصد تطلب لنفسها. بمعنى أن الصلاة وما ركبت منه من ركوع وسجود وما يسبقها من وضوء لم تشرع لذاتها بل لما تستتبعه من الفوائد الروحانية والإمدادات الربانية وكذلك كل العبادات المشروعة والمناسك المفروضة قال تعالى: (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم) وقال في بيان حكمة تشريع الصلاة: (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) وقال في بيان حكمة الحج (وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق، ليشبدوا منافع لهم ويذكروا أسم الله).

أين هذا من قوم يعتقدون إن الدين لم ينزل إلا لتسخيرهم وإذلالهم. وإن الله يود منهم هذه العبادة لذاتها لا لنفع الإنسان من طريقها. لا جرم أن مثل هذه الأمم تعتبر الأديان عبأ ثقيلاً، فلا نرى مندوحة للتخلص منها وإلقاء نيرها إلا أملست منها مسنهة حلوه الذين تمسكوا بها، زاريه بعقولهم في تعويلهم عليها.

الأصل الإسلامي الثاني عشر: حرية البحث والنظر

أباح الإسلام لمتبعيه البحث والنظر في الأصول الدينية ناهيك أنه طالب المتمسك بالدليل، وكره الإيمان بالتقليد فكانت هذه الأباحة فاتحة رقي كبير في الأفكار وثمراتها إذ لا يخفي أن الحرية في البحث تؤدي إلى تحاك الآراء، وتنازع الأفهام فتتجلى الحقيقة من خلال هذه المنازعات الأدبية بل تتأدى العقول إلى باحات لأحد لها من العلوم الإجتماعية التي عليها قوام الجماعة وحياة الأمة.

لا جرم لم يلب رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوة ربه وينقطع مدد الوحي حتى أخذ المسلمون يعملون بهذا الأصل في فروع العبادات ونظام المعاملات فنشأ الخلاف في الآرا. ولكنه كان خلافًا سلبيًا محضًا إذ كان الجميع يستندون على النصوص القرآنية والأحاديث النبوية فكان المتخالفون يعرض بعضهم آراءه على البعض الآخر فيحمي بينهم وطيس الجدال فإن أقام أحدهم الحجة على أخيه صرفه عن رأيه وإلا بقي الأثنان على رأيهما، لا يؤديهما خلافهما إلى المنابذة والملاجة.

نشأت من هذه الإباحة في البحث ميول أخرى كلها كانت ذات فائدة في ترقية الأمة، ودفع الجمود الفكري عنها مثل الميل لتمحيص الأحاديث ومعرفة صحيحها من موضوعها والنظر في التفسير وجمع الآراء المتباينة فيه، ونقل إختلاف المأولين لمعانيه والجري وراء إستيعاب اللغة ليفهم على وجهه الحق وغير ذلك فلم تمض مائة سنة حتى رأينا المذاهب تعد بالعشرات في الفقه وفروعه وإذا كان قد بقي منها أربع في ذلك إلا لكثرة أتباعها وإنتشار زعمائها في أرجاء الأرض.

وإذا كان المسلمون قد وقفوا من البحث عند هذا الحد وقنعوا ما جاء به أؤلئك الأربعة الكرام فليس ذلك لأن طبيعة الدين الإسلامي تستدعيه ولكن لتقصير المسلمين في النظر وقصورهم عن إلحاق شأو الأقدمين في العلم هو تقصير وقصور رأوا نتائجهما الوخيمة وسيرونها ما داموا ملتائين بهما.

ومما يدل على أن وقوفهم عند هذا الحد تقصير أن أولئك الأئمة الأربعة لم يحتموا على الناس الأخذ بمذاهبهم ولم يدعوا أنهم بلغوا الغاية مما تمس الحاجات إليه في كل زمان ومكان بل إعترفوا بأن ما جاءوا به هو أقصى ما قدروا عليه وحظروا على متبعيهم الأخذ بما قالوا إلا بعد الفكر في أدلتهم عليه فقال الإمام الأعظم أبو حنيفة «حرام على من لم يعرف دليلي أن يفتي بكلامي» وكان إذا أفتى يقول «هذا رأي أبي حنيفة وهو أحسن ما قدرنا عليه فمن جاءنا بأحسن منه فهو أولى بالصواب».

وكان الإمام مالك بن أنس إذا أستنبط حكمًا يقول لأصحابه «أنظروا فيه فإنه دين وما من أحد إلا ومأخوذ من كلامه ومردود عليه إلا صاحب هذه الروضة» يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال الإمام الشافعي للربيع: «يا أبا إسحق لا تقلدني في كل ما أقول وأنظر في ذلك لنفسك فإنه دين».

وقال الإمام أحمد بن حنبل: «أنظروا في أمر دينكم فإن التقليد الغير المعصوم مذموم وفيه عمي للبصيرة».

هذه أقوال الأئمة الأربعة أنفسهم ومنها يتضح أنهم أفتوا بحرمة تقليدهم لمن لم يعرف دولتهم وقد استحال أمر المسلمين اليوم من الجمود أنهم يلومون من يسأل عن أدلة المجتهدين ويدعون أنه يجزئ أحدهم أن يفهم من أقوالهم أو من أقوال تلاميذهم.

أنظر لهذه الإباحة التي قررها الإسلام للنظر وتأمل في أديان سبقته كان قادتها يحرقون بالنار كل من يتجاري على فهم يخالف فهمهم ثم قارن بين أئمة هذا الدين في تحريمهم الأخذ بأقوالهم بدون نقد وبين الحظر العظيم الذي كان يصدر من قادة تلك الأديان على الناس أن ينظروا فيما يصدرونه من الأوامر مدعين أنها والأوامر الإلهية في مستوى واحد، يجب أن تترفع عن كل نقد وتمحيص.

هذه هي الأصول الأثنى عشر التي نراها من خصوصيات الإسلام قد غالب بها جميع العقائد التي كانت منتشرة على عهده فغلبها وحل من النفوس والعقول محلها ولا يزال يحل بما بقي منها في أعماق الصدور ويختلط بهوى القلوب.

كل ما في الإنسان من تعاليم إنما تتفرع عن هذه الأصول وتشتق منها كإحترام الغرباء والحنان على الإسراء وصيانة حقوق الضعفاء.

لماذا انحط المسلمون وفيهم هذه الأصول؟

إن هذه الأصول الإثنى عشرة التي قررناها تصلح لإقامة أكرم مدنية في العالم وتؤلف أشرف مجتمع فيه بل هي أصول تدأب العلوم الكونية

والاجتماعية على غرسها في النفوس وتعد نفسها من أجلها أرقى من أرقى فلسفة في المتقدمين، فلماذا أنحط المسلمون وهي أصولهم المقررة في دينهم، وبأي علة تدهوروا في تيهور الاضمحلال وأصبحوا حيارى لا يجدون مخلصًا مما وقعوا فيه؟

الجواب ليس بالأمر الصعب. ذلك إنهم انحرفوا عنها. وتنكبوا طريقها بل دابروها كل المدابرة وعادوها جد العداء وعملوا على خلافها جهد طاقتهم كأن حظهم من الدين استحال إلى مناقضتها والعمل بما يعاكسها. وإليك التفصيل:

قلنا إن أول الأصول الإسلامية التخليص بين الإنسان وخالقه، فهل بقي المسلمون على هذا الأصل؟ لا.

إنهم أخذوا قبور صالحيهم قبلة يتوجهون إليها وبنوا عليها القباب وإتخذوا فوقها المقاصير ورفعوها عن الحد الشرعي ووضعوا عليها العمائم وأشعلوا فيها السرج وقد ورد في السنة النهي بالنص الصريح عن إدخال القبور في المساجد وعن إيقاد السرج عليها، حتى لا تفتتن العامة فيعبدوها ويتخذوا من فيها وسطاء بين الله وبين عباده. فترى دهماء المسلمين اليوم لا يدعون الله وحده ولا يرفع أحدهم يده إلا مستشفعًا بواحد من أولئك الصالحين ومتخذًا إياه وسيلة إلى الزلفي من خالقه.

نعم، إن المسلمين لم يصلوا من هذه الوجهة إلى مثل ما وصل إليه سابقوهم من أهل الملل الأولى ولكنهم حادوا عن أصلهم الأول بما لا يتفق مع روحه الخالصة النقية وزادوا انحرافهم ضوضاء بما يتخذونه من

الاحتفالات حول تلك القبور فيما يسمونه بالموالد فتراهم شيعًا متحلقين إلى حلقات يذكرون الله بأصوات منكره وبألفاظ لا تفهم صاخبين مصفقين متمايلين مضطربين فإذا فرغوا من ذلك؛ ساروا في الطرق حاملين الرايات والطبول وطافوا شوارع المدينة على حال لو رآها النبي صلى الله عليه وسلم أو أحد خلقائه لحدهم عليها حد المشاغبين، المتلاعبين بالدين.

يحصل كل هذا والعرفة بحقيقة الدين يملئونهم عليها ويمدونهم فيها، بعضهم جرًا لمنفعة تلحقه منهم، والبعض الآخر تقصيرًا منه في أداء وظائفه والحكومة لا تستطيع أن تمد إلى أولئك المتلاعبين يدًا ما دام حفظة الدين أنفسهم يقرونها ويعملون على تأييدها.

بهذا الانحراف أنحرفت القلوب عن حكمة ذلك الأصل الكريم، ولم تعد تستفيد من آثارها عليها، وظهر المسلمون من هذه الوجهة بمظهر الأمم المتبربرة الذين جاء الإسلام بالنعي عليهم والأخذ على أيديهم.

أما الأصل الإسلامي الثاني وهو المساواة العامة فقد صدف عنه المسلمون أيضًا فقسَّموا الناس قسمين قسم سموهم رجال الدين وقسم سموه أهل الدنيا فأبقوا الأولين حيث هم قطعوهم عن الأعمال الدنيوية وقصروهم على خدمة المساجد وتعليم الدين ليس في طبيعة الاسلام ما يسمح بوجودهم فلم يبلغوا شأو نظرائهم في الملل الأخرى لا من ناحية التأثير على الأرواح ولا من جهة قيادة العامة. وتوالت على المسلمين حكومات أقرت هذا التقسيم وأمسكت يدها عن ترقية شؤونهم فبقوا حيث كانوا منذ مئات من السنين يعتبرون من جهة أئمة الدين وحملة

شرائعه وليس لهم من جهة أخرى ما لغيرهم من السلطة فصار هذا التقسيم أضر على المسلمين مما كان منه في الأمم السالفة، لأن تلك الأمم كانت فيها وظائف رؤساء الدين منصوصًا عليها في ذات الدين فلما نشأت السلطة الدنيوية وقويت شوكة الشكوك وتنازعت السلطتان قباد الأمم حصلت تلك الأمم من ذلك التنازع تجارب نفعتها في تحديد السلطة الدنيوية وردها إلى ما يوافق مصلحتها فيما بعد ولكن نشأ هذا التقسيم في المسلمين ضد طبيعة الدين بمحض إرادة الحاكمين فلم يكن لطائفة رجال الدين دائرة اختصاص يدافعون عن حدودها. وكانوا طول عهدهم العوبة في يد القادة الدنيويين فلم تشعر الأمة من وجودهم إلا برؤية ذواتهم وثم تتدافع الطائفتان لتتعلم بتدافعها موضع مصلحتها منهما فلم تستفد مثل ذلك الدرس الاجتماعي الذي أخذته الأمم الأخرى ولم تتهيأ في وقت من أوقاتها لأحداث مثل ما أحدثته من الانقلابات العمرانية التي كان لها أكبر أثر في انتظام شؤونها القومية.

أما من جهة الأصل الإسلامي الثالث: وهو تقرير مبدأ الشورى والحكومة فقد انحرفت عنه الأمة من زمان بعيد أي من عهد معاوية بن أبي سفيان حين ناهض الخليفة الرابع ولم يعبأ بإجماع أهل الحل والعقد في إسناد الخلافة إليه فأدرع بالقوة القاهرة لتحقيق أمانيه وأوجب على الناس طاعته بقوة السلاح وعهد بالأمر لأبنه يزيد وأخذ له البيعة بالإرهاب والرشا فأعطى السيف من استعصى، وبذل المال لمن مد يده، حتى أستتب له الأمر فنجمت نواجم الفتن الداخلة فخرج عليه الحسين ابن على بن أبي

طالب بالكوفة وعبد الله بن الزبير بمكة ونشبت الحرب الأهلية ثم أستقر الأمر لبني أمة حينًا من الزمان ثم ظهر دعاة بني العباس فأوغلوا في خصومهم قتلاً وسفكًا حتى أسندوا الأمر لأنفسهم فذهلت الأمة عن وجودها بهذه الحروب المتوالية واستكانة للغالب الفاتح وأخطأ العباسيون في إحاطة أنفسهم بشذاذ الآفاق من الأتراك فصارت الخلاغة ألعوبة بأيديهم وقامت كل صقع من أصقاع المملكة دولة يرأسها متغلب مغتصب وصارت البلاد بين ثائريهم في معارك مستمرة حتى سطا عليهم المغوليون فأسقطوا الخلافة العباسية التي لم يكن لها حظ من هذه الوظيفة غير الاسم فضاع أصل الشورى واستحال الأمر إلى الاعتماد على القوة وعجز المركز العام عن حفظ وجوده فلم تقف المطامع عند حد واستمر المسلمون في حركتهم القهقرية حتى ورث الغرب أكثر أصولهم فما شعروا إلا وهو محاطون بالأمم الاستعمارية من كل مكان.

أما من جهة الأصل الإسلامي الرابع وهو تعليق السعادة والشقاوة في الحياة الأخرى على الأعمال والصفاة الذاتية لا على الشفاعات والقرابات فقد كايد عين الأنحراف الذى كابده ما تقدمه من الأصول. ذلك أن دهماء المسلمين ما تأسروا به من مطالعة الكتب التي وضعها جهلة المؤلفين من أهل البطالة والتعطيل وقرَ في نفوسهم أن المكانات الأخروية تنال بمجرد قراءة بعض الأدعية والهمهمة ببعض الألفاظ وقد نقل أولئك المؤلفون من الأحاديث الموضوعة والآثار المكذوبة ما يكفي لتضليل العقول عن الحقائق الروحانية المقررة.

انتشرت هذه الكتب بين المسلمين فصرفتهم عن حقائق الدين وموهت عليهم الأباطيل وصورت لهم العالم الروحاني تصويرًا خياليًا وجعلت زمامه بأيدي أفراد من المقربين بين حاكمة بأن من انتمى إليهم فاز بالحور والجنان، ولو كان عليه من الذنب ما أحب الملكين، وإن من فاته اللياذ بهم. فإنه الخير كله ووكل إلى نفسه. فمالت نفوس العامة إلى هذا التمويه ونسوا قوله تعالى: (ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوء يجز به) وضاع في نظرهم معنى الثواب والعقاب في الآخرة واضطرب في وهمهم ميزان العدل الإلهي فبطلت حكمة الترغيب والترهيب وفقدت العبادات والمجاهدات ثمرتها المقصودة منها واستحال الأمر إلى أمان كاذبة، وأوهام باطلة ولا تسل عما ينبني على هذا الضلال من ضياع حكمة الدين وخروج أهله عن سننه القويم.

أما من جهة الأصل الإسلامي الخامس: وهو الاعتراف بحقوق العقل والعلم فقد لقى من أعراض المسلمون ما لقى سابقوه من الأصول كيف لا وقد راجت فيهم الحكايات الميتلوجية مما جمعه جهلة المؤلفين من أساطير الأولين وخرافاتهم، وما رووه عن الأفراد منهم فانحطت قيمة العقل واتسعت أمامهم دائرة الممكنات حتى شملت المستحيلات، واستعدت الأذهان لقبول كل ما يقال ولو كان فيه هدم لأصول الشريعة ثم زادوا في هذه الطريقة غلو فحرموا الاعتراض ما يروي من تلك المناقصات للعقل، وأوعدوا من يتجارى على تكذيبها بالحرمان من الرحمة الإلهية والاستهداف لسوء الخاتمة فلم يبق للآيات الداعية إلى تعقل الأمور وتدبرها بعين النقد

أثر في نفوس المسلمين وتبع ذلك ما يستلزمه من انحطاط مداركهم ووقوفهم موقف العاجز أمام الحقائق الساطعة.

أما الأصل الإسلامي السادس وهو المؤاخاة بين الدين والمدنية فقد أنحرف به المسلمون أنحرافًا يناسب إنحرافاتهم في كل ما عداه فإن الحروب التي وقعت بين أمراء المسلمين في القرن الثاني وما يليه صرفت الأذهان عن نعم الحياة الأرضية ولفتتها إلى ما أعد لها في الحياة الأخروية. فراجت الكتب الزارية على الدنيا، الناعية على أهلها ولوعهم بها، وأكثر المؤلفون من إيراد الحكايات عن الزهاد والمتصوفة فأشربت نفوس المسلمين الإستكانة والذلة وتوجهت إلى إيثار الزهد والإقلال، وإن كان مثل هذا الزهد القسري لا يعد فضيلة فإكتست نفوسهم صفات المستخذين من الأمم وتطرفوا فعدوا مظاهر المدنية من فاتنات النفوس وقاطعاتها عن كمالها فلما ظهرت لهم المدنية الأوروبية بما حملت من سحر وأبداع صرحوا بأن لهم الأخرى ولغيرهم الدنيا وأصبحت تلك عقيده بعضهم لليوم. وفي هذا التصريح ما فيه عن إعطاء الدنية والإقرار بالعجز والركون للسكينة.

أما الأصل الإسلامي السابع وهو تنبيه الإنسان بأن للوجود الإنساني سننًا لا تتبدل فقد أنقلب في نظر المسلمين إلى ضده؛ لأنهم لما اعتمدوا في حياتهم على الأوهام والأماني وعولوا في تصرفاتهم على الخرافات والأضاليل الموضوعة ذهلوا عن النظر للواقع المحسوس وشغلهم الطيران في جواء الخيالات، عن التدبر في الحقائق الراهنة فلم يتحروا الأسباب، ولم يتلمسوا وجوه النجاة وكأنه وقر في نفوسهم أن تبدل حالهم

إلى أحسن حال يجيء بمحض الدعاء أو بحادثه غير منتظرة، فتراهم كلما ألم بهم ألم من حال نظروا إلى السماء ولم يزيدوا عن الحوقلة والاسترجاع فراجت عليهم الكتب الرمزية الدالة على مستقبل الحوادث كالجفر واعتماد ملوكهم على حركات الأفلاك فاسترشدوا بالمنجمين واستهدوا بالمضللين من المتنبئين فضل سعيهم في الحياة الدنيا. فلما أحتك بهم الغربيون وجدوا منهم أممًا على غير هدى لا بصيرة لها بدين ولا دنيا فسهل عليهم قيادهم ولولا أن الاستعمار العصري ترقت أساليبه وصار للعدل فيه حظ كبير لبادت أكثر الأمم الإسلامية كما بادت أمم أمريكا الشمالية والجنوبية تحت سيطرة المستعمرين.

أما الأصل الإسلامي السابع: وهو لفت الإنسان إلى نظام الطبيعة وتوجيه نظره لأسرارها الخفية ليستفيد منها لتغذية روحه وعقله ونظامه الاجتماعي فقد حاد عنه المسلمون إذ قصروا العلم عن العلوم الكلامية وصار كل اهتمامهم في المجهودات العقلية موجها إلى تفهم كلام الأقدمين، وياليتهم توسعوا في هذا الأب فجمعوا كتب آبائهم في الطبيعيات والرياضيات والطب والفلك وجعلوا لها حظًا من عنايتهم بل اقتصروا على علوم الكلام وتفرغوا لها فصاروا غرباء حتى عن تحقيقات أسلافهم في الكون فلم ينبغ فيهم واحد كأبن سينا أو أبن رشد أو الفارابي وانحطت مدركاتهم على الكون حتى لم يعد فيهم من يبحث عن قوى أجسادهم وطبيعة أرضهم وما برح الانحطاط آخذًا مجراه حتى جاءتهم العلوم الأجنبية بلغاتها الأعجمية فظنوها كفرًا فتألبوا على معارضتها وأصبح علم الطبيعة في نظرهم من الرجس الذى لا يصح أن

يقربه مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر. فتأمل رحمك الله في هذا الإنحراف عن سنن القرآن وأصول الإسلام وقل لي إلى أن حضيض لا تسقط المجتمعات الإسلامية من الإنحلال وفساد الكيان.

فينما نرى الأمم قد وصلت من العلم الطبيعي إلى حيث يستخدمون قوى الماء والهواء فأصبحوا يقطعون القفار المترامية إلا كناف في الساعات المحدودة ويحلقون في الجواء إلى أبعد مما تصل إليه النسور والعقبان، تجد المسلمين لا يزالون من علومهم الكلامية في حال مقيم مقعد، وقد أدركهم الإنحطاط في ذات تلك العلوم فقنعوا من كتبها بما لا يوصل إلا إلى إنضباب معين القرائح ووقف حركة الأفكار.

أما الأصل الثامن: وهو الاعتراف بحقوق ميول الإنسان وعواطفه فقد خبطوا فيها على غير بصيرة تبعًا لانحرافهم في الأصول السابقة وهل يميز بين الميول الحقة والوهمية. وبين العواصف الحسنة والرديئة إلا العالمون بأسرار العلوم النفسية وأني لهم ذلك وتلك العلوم فرع من العلوم الطبيعية وهي قابلة للترقي إلى غير حد وإني ليؤلمني أن أذكر أن ليس في معهد من معاهد العلوم الإسلامية من يدرس هذا الفرع العلمي أو من يدور بخلده أنه من المعارف الضرورية.

أما الأصل الإسلامي التاسع: وهو العمل على توحيد العالم في دائرة المعاملات فقد أصابه ما أصاب سائر الأصول، إما من عدم الباحثين في هذا الأمر أو لعدم إمكان تنفيذه بما دخل فيه المسلمون من الجمود فإنهم لذهولهم عن جميع أصولهم المحببة صار أمرهم ليس في أيديهم وأصبحت

شؤونهم الخاصة والعامة تبعًا لشئون سواهم، فسواء بحثوا في مثل هذا الشأن أو لم يبحثوا فيه فليس لهم حول على عمل تمليه عليهم الفكر الناضجة والآراء الأصيلة، فالمسلمون اليوم إذا كانوا لا يبحثون هذا التوحيد في حدوده الحافظة لوجودهم فهم مقودون قسرًا الفناء في أجساد الأمم المحيطة بهم.

أما الأصل الإسلامي العاشر، وهو الاعتراف بناموس الترقي فقد كابد انحرافًا عظيمًا فالمسلمون بحالهم وقالهم اليوم يميلون للرجعي إلى دور من أدوارهم الماضية فقادة أرواحهم يحملون بإعادة مثل عصر بني العباس أو سواه مما تكون المدنية الإسلامية فيه بلغت شأوها إلا بعدوهم مع محاولتهم الرجعي يعملون على عكس الأصول التي رقت تلك الدول، فإن أسلافهم في العصر العباسي نهضوا من طريقها الطبيعي فترجموا الكتب الطبيعية التي كانت لليونان والفرس والهنود إلى لسانهم وأخذوا في دراستها وتفهمها حتى برعوا فيها ولم يكفهم ذلك بل رحلوا إلى بلاد تلك الأمم وتعلموا لغاتها وبحثوا في مجتمعاتها ونقبوا في آثارها وتعرفوا نباتاتها وحيواناتها ونقلوا لبلادهم كل ما توسموا فيه الفائدة والمصلحة ولكنا اليوم نتمنى الرجعي إلى مثل عهد من عهودنا السابقة ولم نعمل في هذا السبيل عملاً يؤدي إليه كأننا نزعم أن ذلك يتم بمجرد تمنيه .أما الأصل الإسلامي الحادي عشر: وهو تقرير أن الدين إنما شرع لفائدة الإنسان ومصلحته لا لتسخيره وإذلاله. فلم يعد أحد يبحث فيه فترى ألوفًا من المعلمين يعلمون الدين في المساجد والمعاهد العلمية مكتفين منه بكيفية الوضوء والصلاة

والحج والزكاة، ولم يتعرض واحد منهم لبيان الحكمة المقصودة من هذه العبادات حتى وقر في نفوس العامة والخاصة أنها تطلب لذاتها لا أنها وسائل لغيرها؛ لذلك يكتفي أحدهم من الصلاة بالركوع والسجود على أسرع ما يكون كأنه مسخر لأداء حركات معدودة لا مزية فيها، وأن صام أمسك عن الأكل طول نهاره صاخبًا لاغيًا مشاغبًا، كأنه يؤدي سخرة حتى إذا قال المؤذن حي على الصلاة أقبل على مائدته بكليته فلا يزال يملأ وعاءه حتى يعجز عن الحركة، ثم يأخذ في التنقل من ناد إلى ناد حتى يجيء، وقت السحور فيعاود الأكل جهد استطاعته وهكذا، فلا ينسلخ شهر الصوم إلا وفي معدته أثر سيء من ذلك النهم الذي سماه صومًا. ولكن لو كان قادة العقائد وقفوا الناس على حكمة العبادات وعرفوهم أنها رياضات لتحصيل الكمال الروحي وتوسعوا في هذا البحث الخطير بما يليق به من البيان لكان حظ المسلمين منها غير حظهم اليوم.

أما الأصل الثاني عشر: وهو إطلاق حرية البحث لأولى البصر بالدين فقد استحال إلى عكسه فوقر في النفوس اليوم أن ليس في الإمكان أبدع مما كان وأن الأمة يكفيها أن تكون عالة على أسلافها في جميع الكليات والجزئيات ليس في الأمور العبادية فقط بل وفي جميع المسائل الشرعية مما يختص بالمعاملات. ولم يكفهم هذا التضييق حتى قروا أنه لا يجوز لإنسان أن يخلط بين المذاهب فيقلد إمامين في وقت واحد؛ فتقرر العمل بمذهب أبي حنيفة وحده وترك ما عداه من المذاهب وفي هذا من الحجر على أمة برمتها ما فيه. فبينما نرى للأمم الأوربية جماعات تشريعية

تواصل العمل في سن النظامات وتقنين القوانين وتنقيح الأصول وتجديد مارث منها وبطل موجبه، ترى المسلمين جامدين على شكل واحد منها لا يبغون عنه حولًا. فلو كان في طبيعة دينهم ما يحرم عليهم النظر والتجديد لكان لهم بعض العذر فما بالهم ودينهم يحضهم على النظر. ويزعهم عن الوقوع في الجمود، وأئمتهم قد تبرأوا ممن يأخذ بأقوالهم بدون نقد وقرروا أن باب الاجتهاد مفتوح إلى يوم القيامة.

هل خفي عن المسلمين اليوم أن الحوادث تتجدد وأن النظامات تبلي كما تبلي الأثواب، وأن القوانين تتطور في حالات شتى لتتفق مع مصلحة الأمة؟

الفهرس